TIHAMA

الكتاب العربي السعودي ٨

د. أمل محمد شطا

غداً أنسى



الطبعة الأولى
١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م

تهامة TIHAMA

الكتاب العربي السعودي ٨

د. أمل محمد شطا

غداً أنسى

الطبعة الأولى
١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

الناشر
تهامة
جدة - المملكة العربية السعودية
ص.ب ٥٤٥٥ - هاتف ٤٠٠٠٠

الإهداء

إلى أبي الغالي ...

أُهدي أول كتاب لي

مع حُبّي وعرفاني

عزيزي القارئ

إن هذه الصفحات تضم بعضاً من نفسى ، وبعضاً من مشاعرى وأحاسيسى . فو الله ما كتبتها طمعاً فى نصر أدبي أو كسب مادى ، وانما أردت بهذه السطور أن أنفّس عما يجيش بداخلى ، وأن أتحدث عن شخصيات أصبحت عزيزة وقريبة إلى نفسى لطول معايشتى لها ، لدرجة أننى كدت أشك أنها رواية حقيقية وأننى أعرف أبطالها ، وأنهم يعيشون بيننا بالفعل .

وقد يكون اللقاء قد سبق بيننا من خلال مقال أو قصة قصيرة،ولكنها المرة الأولى التى نتقابل فيها سويا فى رواية طويلة أرجو أن تحوز رضاك وأن تحوز إعجابك ، كما أرجو ألا يكون هذا هو اللقاء الأخير ، وأن تكون لنا لقاءات أخرى متعددة بإذن الله .

د. أمل محمد شلطا

تقديم

بقلم الأستاذ عزيز ضياء

كاتبة هذه الرواية ، د . أمل محمد شطا ، كما كانت مفاجأة لى ، فإنها ستكون مفاجأة للقارىء حين يعيش احداث روايتها ، وحين يتذوق أسلوبها السهل المتدفق ، مع سلامته من الخطأ ، واستقامة عبارته، وإشراقها حين يكون الاشراق والسطوع سبيلا إلى المزيد من تعمّق الموضوع ، والمزيد من الحرص على احتواء القارىء ، ثم تركه ، وقد امتلأ الشراع ، وسهل الإبحار إلى شاطىء يظل لايدرى أين هو ، ولكنّه لايشك فى أنه سيراه مع الكلمة الأخيرة من الكتاب .

وقد كانت الكاتبة مفاجأة لى، لأنى لم يسبق أن قرأت لها ماجرت العادة أن اقرأه واعجب به من الأدب النسائى الذى ينشر فى صحفنا ، وعلى الأخص منه ، ذلك الذى تدأب على إفساح المجال له والاحتفاء به جريدة الرياض . فنحن لم نشهد لأمل محمد شطا ، التدرّجَ المعهودَ من كتابة مقال ، أوتحقيق أوتعليق ، إلى كتابة أقصوصة أو قصة قصيرة.. ثم لم نسمع عنها أنها تتعلّق الأدب ، وتتعشق المشاركة فى مسيرته ، عندنا ، ذلك أنها طبيبة . . وهكذا يعرفها كل لداتها ، بل لعلى لاأسرف اذا زعمت أن أقاربها ربما لم يخطر لهم ببال أن (أمل) هى هذه الكاتبة التى تشرق اليوم على الساحة الأدبية ، ليس بمقال أو يوميات ، أو ما إلى ذلك من مألوف مانقرأ للكاتبات أومانسمعه عنهم فيا يدور على ألسنة المعنيات بالثقافة والفكر من نساء الأسرة ، وإنما (برواية) طويلة ، لفت نظرى أنى ماكدت أبدأ قراءتها ـ بما تعودت من تباطؤ وتمهّل بالنسبة لما يصلنى أويقع تحت يدى من إنتاج الشباب ، حتى وجدت نفسى مشدودا إلى الأحداث أمرّ بصفحاتها واحدة بعد الأخرى ، ثم لاأكاد اتركها للطارىء من شواغل اليوم ، حتى أعود اليها ، إلى أن فرغت منها .

وحين أقول : (رواية) فإنى أعنى هذا النوع من العمل القصصى الذى يتجاوز مايعرف بالأقصوصة أوالقصة القصيرة ، ليس حجما وعددَ صفحات فقط ، وإنما بالنسبة للشخصية المحورية والموضوع ، ثم الشخصيات التي تواكب الأحداث فتظهر فى وقتها لتلعب أدوارها فى خدمة هذه الأحداث التى يفرزها الموضوع .

ومع أن (الرواية) تختلف عن : (القصة) فى اللغات الأوروبية ، ولكل منها الاسم الذى ينصرف اليه الذهن حين تُسمع الكلمة أوتُقرأ ، فان الظاهرة الشائعة فى الأدب العربى أوبين من يكتبون عن العمل القصصى فيه ، هى أن يطلق لفظ (القصة) حتى على الرواية الطويلة كالتى نعالج تقديمها اليوم . . ودون أن ندخل فيما لاطائل وراءه من تفصيل يمكن القول ان لفظ (القصة) اسم جامع شامل يمكن ان يطلق على الأقصوصة ، وعلى القصة القصيرة ، وحتى على (الحكاية) ، ثم على (الرواية) ايضا . ولكن حين يقال (رواية) فإنها تعنى مايعرف فى الآداب العالمية بكلمة (NOVEL)فإذا كان العمل القصصى بين القصة القصيرة وبين الرواية من حيث الحجم على الأقل ، فإنه يعرف باسم (NOVELETTE).

ومن هنا يستطيع القارىء ان يدرك باعث دهشتى ، إذ لم يكن مما أتوقّع أن أجد (أمل) قد تجاوزت مختلف أنواع العمل القصصى المألوف ، واختارت أوعر المسالك ، وأشدها تطلبا لسابق المران والخبرة، إلى جانب الموهبة ، مع حصيلة وافرة وافية من تجارب الحياة وممارسة تقلباتها ، يدعم كل ذلك الكثير والدقيق المركّز من مباحث علم النفس ، وعلم الإجتماع ، والأكثر من دراسة الأعمال القصصية لعمالقة أعلامها . وبالنسبة لأجواء (جنوب شرق آسيا) التى اختارتها الكاتبة لجانب كبير من أحداث الرواية وبعض شخصياتها المحورية ، ربما كان لابد لها من معايشة هذه الأجواء أو القراءة المتمعنة عنها . . وكل ذلك ، أو حتى بعضه القليل ، ليس مما يسهل استيعابه واحتواؤه مع فترة الدراسة فى كلية الطب ، وهى لاتقل عن سبع سنوات بحال ، ثم بعد ذلك ، العمل فى حقلها المهنى ، ومع العمل ، مسؤوليات الزوجية والبيت .

وقد أجد نفسى ملزماً بأن أقول انها قد أحسنت الاختيار ، إذ قد استطاعت بكتابة (الرواية) أن تتميّز عن العشرات من الكتاب الذين يتزاحمون على ارتياد منهل القصة فى المملكة . وقد وفّقت فى تحقيق مطلبها العسر ، وطموحها الجامح . ولعلّها وهى التى لابد أن تعد منذ اليوم فى كاتبات المملكة وأديباتها الكبيرات ، سوف تنصرف إلى الأدب وسيكون لها فى مسيرته شأن مرموق،بدايته هذه الرواية التى تَعِدُ ساحةَ الأدب القصصى عندنا بالكثير الذى يتيح لنا أن نطمئن إلى أن رصيدنا من عطاء الفكر والفن سوف يكون أكثر غنى وحفولاً بالروائع مما كان حتى اليوم .

ولست بسبيل المقارنة بين رواية د . أمل محمد شطا هذه ، وبين روايات ظهرت خلال عشرين سنة مضت ، لعلّ أهم مايذكره القراء منها رواية المرحوم الأستاذ حامد دمنهورى ، وقد يذكرون ايضا رواية للأستاذ محمد عمر توفيق ، واخرى للأستاذ محمد على مغربى ، والواقع أن المقارنة تتعذّر علىّ لأنى لاأجد هذه الأعمال فى متناول يدى الآن ثم لأنى على جناح سفر قريب ، ولأنى أيضا بين براثن مشاغل تأكل الكثير من الوقت وتبدّد الأكثر من القدرة على التذكّر والتركيز . ومع ذلك فانى لاأجد حرجا فى أن أقول مطمئنا ، ان المعالجة الفنية ، والتناول الدرامى ، والجولة البارعة فى مسارب نفوس الشخصيات المحورية ، فى رواية أمل محمد شطا تبدو أرسخ قدرة ، وأبرع احتواء وأوفر عرضا من كثير من القصص التى قرأتها لكتابنا القدامى والمحدثين على السواء . . بل لاأجد حرجا إذا قلت أنها أول رواية بقلم كاتب فى هذه المملكة يتوفّر فيها الكثير من عناصر العمل الروائى الأصيل ، ومن الصدق الفنى الذي يستغنى عن الافتعال والتزيّد كما يستغنى - فى نفس الوقت - بهذا الصدق ، عن البهرج والزخرف فى المعنى أو اللفظ .

وقد لاينبغى أن نغمط الروّاد القدامى حقهم فى التقدير ، إذا لم نغفل التنبيه الى حقيقة غابت ومازال تغيب عن كثيرين من الذين كتبوا القصة فى المملكة ، أو حتى فى العالم العربى ، وهى أن فن كتابة القصة ، يظل بين جميع فنون الأدب ، الفن الذى تكمن فيه قدرة سحرية على استدراج الكاتب واغرائه بالمحاولة ، وايهامه بسهولة المأخذ ، ويسر التناول مع رجحان احتمالات النجاح ، بل وربما التفوق أيضا . وبهذه الخصيصة فى طبيعة الفن القصصى ، شهدت الساحة الأدبية فى العالم العربى

ـ وماتزال تشهد ـ الكثير من الأعمال التى تفيض بها قرائح الكتاب ، وعلى الأخص فى بداية عهدهم بالكتابة والنشر ، وكتاب هذه الأعمال ـ ومعهم ناشروها ـ يسمّونها قصصا . وقد لاتعدم من يقرّظونها ، ويفتعلون لها الانتساب الى احدى مدارس الأدب والفن ، وعلى الأخص حين تشيع فى العمل (الهلامية) ، وتتبعثر الفكرة ، ويتبخّر الموضوع ، وتتطاير هنا وهناك فى كل جملة تقريبا الفاظ كثر التهافت عليها هذه الأيام مثل : (الصدأ . . والتسلّخ ، والنجوم « فى المجارى » والمطرقة فى نخاع الشمس ، ثم المسامير ، والصديد ، والجبال على الاثداء ، والغابات فى ضفائرها . . الخ. . .) ، فان ذلك ، وما اليه سرعان مايصبح مفاتيح الناقد الى رواق الحداثة فى الفن ، يجد فيها للكاتب العبقرى مكانا الى جانب من حفظ اسماءهم (فقط) من اعلام السيريالية ، أوالانطباعية ، أوالعبثية ، أوغيرها من هذه المدارس التى تعشّقَ ترديدَ اسمائها الكتاب وشداة الناقدين وادعياؤهم على السواء . .

ومسيرة الأدب فى المملكة ـ كمسيرته فى كل بلد عربى ـ شهدت نفس الظاهرة ، وماتزال تشهدها ، فلم تعدم القصة من استدرجتهم الى محاولة كتابتها ، كما لم تعدم مدارس الفن المظلومةُ من اشبعها عبثا وتخريفا وهلاسا . وان كان رصفائى من الشيوخ قد احتفظوا بوقارهم فلم ينجرفوا فى تيار التخريف والهلاس ، فان كتابة القصة ظلت الحرم المباح الذى لم يجدوا حرجا فى ان يقتحموه ، ان لم يكن اليوم ، فمنذ اربعين عاما ، إذ قد لاننسى أن الأستاذ الكبير الشيخ عبدالقدوس الأنصارى ، كان أول من اقتحم الميدان ، بقصتين لاواحدة ، اولاهما (التوأمان) والثانية : (مرهم التناسى فى صيدلية الآمال) . ولايساورنى شك فى ان الأستاذ الكبير يزحمه الضحك الان كما يزحمنى حين تعاوده ذكرى مافى القصتين من تفاهمة وخواء ، وما فى عنوان الثانية من سذاجة فكر وبدائية تعبير واداء . ولكن يحسن ان نتريث فى مطاوعه موجة الانفعال التى تجتاحنا ، اذ ان الأستاذ انما جرب حظه فى فجر المسيرة الأدبية عندنا ، وانه ـ هو نفسه ـ كان فى فجر الشباب ، وفى الأيام الأولى لصدور جريدة صوت الحجاز ، التى لا انسى انها كانت تفتح صدرها لكل مايتقدم به اليها الشداة من الكتاب ـ مادام خاليا من اخطاء النحو والإملاء واللغة ، التى كان الأستاذ عبد الوهاب آشى ثم من تتابعوا بعده على رياسة تحرير الجريدة ، يعتبرونها كبيرة الكبائر والوصمة التى لايزيلها الا عكوف الكاتب على كتب النحو والصرف

والإملاء ، يتسلح بها فيا يكتب ، ليجد عندئذ الأبواب مفتوحة ، والترحيب به دافئا ، والتشجيع سخيا بلا حدود .

ومادمت قد ذكرت مغامرة الأستاذ عبد القدوس ، فيحسن أن لا ابرىء نفسى من الوقوع فى حبائل خدعة القصة الماكرة ، اذ استسهلت الوعر ، وزعمت لنفسى ـ وايام الصبا والشباب مشحونة بالغرور ـ القدرة على كتابة القصة القصيرة ، فنشرت لى جريدة صوت الحجاز (شيئاً) سميته قصة بعنوان : (الأبن العاق) .... وماكاد (هذا الشىء) ينشر ، حتى اخذتنى العزة بالنشر ، وظهرت لى الحلقة الأولى من قصة نسيت اسمها الآن ، فاذا بى أقع تحت طائلة مخالفة استلزمت تحقيقاً لدى فضيلة رئيس القضاة الشيخ عبد الله بن حسن آل الشيخ رحمه الله مع صدور أمره بوقف نشر بقية القصة ، لأنه رأى فيها تحريضا على الإضراب عن الزواج ، وهو مايقتضى المنع بل والعقاب ايضاً ، الاّ اذا تبت توبة نصوحاً . وقد فعلت ـ وعلى يديه جزاه الله خيراً ـ وتزوجت وانجبت ، وما ازال على التوبة حتى اليوم .

وعامل الأستدراج والأغراء فى فن القصة ياتى فى الواقع من أنها ، فى ابسط صورها (حكاية) تروى بكثير أو قليل من التفاصيل ، والفن بالطبع هو فى طريقة الرواية واسلوبها . وما اكثر ماتزدحم اذهاننا بحكايات الأمهات والجدّات ، ثم بعد ان شرعنا (نفك الحرف) ، ما اكثر ما قرأنا من قصص عنتر وأبو زيد الهلالى ، والزير سالم ، والظاهر بيبرس ، ثم فى مرحلة تالية حكايات (الف ليلة وليلة) ... وما أكثر أيضا ماكنا بعد أن نسمع هذه الحكايات أو نقرأها ، نقصها أو نحكيها على من لم يكن له حظ سماعها ، وذلك حين تجمع (الدّكة) على باب المنزل مجموعة من أطفال الحى فى الليالى المقمرة من شهر رمضان . ويندر جداً أن لانضفى على الحكاية تفاصيل جديدة من خيالنا ، فنزيد عدد الذين قتلهم أبو زيد ، أو ننقص عدد من قتلهم الزير سالم ، وليس عندنا مايمنع أن نركّب للخيل أجنحة ، فهى ترتفع وتطير فى أجواز الفضاء ، لتنقضّ على الفرسان كالشهب ، أو كالصواعق ، وقد نخترع للسيوف بروقا ، وللحراب شرراً ، ولوجه الفارس الذى نحبه ونعجب به ، لحية حادة السواد ، وعيوناً واسعة (كالفناجين) أو كالريال الفضّة ـ وقد كان فى ايامنا من القطع الوافر ـ وأن نزعم لصوت البطل دوياً وجلجلة ، فتكفى الصرخة منه وحدها لهزيمة وفرار جيش جرّار من الفرسان .

فمادام الأمر بهذه البساطة ، فما الذى يمنع ـ عندما نشب عن الطوق وتتاح لنا فرصة النشر فى صحيفة ـ وما أسهل ذلك فى صحافتنا حتى اليوم ـ أن نكتب نحن ايضاً (الحكاية) وأن نسمّى هذا الذى نكتبه ـ بعُجَرِه وبُجَرِه ـ قصّة . . . وما أكثر الحكايات فى حياتنا ، وفى حياة من حولنا ، بل ما أكثرها على كل شفة ولسان ، أينما ذهبت ، وحيثما حللت ، فى كل آن وزمان .

وكتبت القصة فى المملكة .

وكان الأستاذ الكبير الشيخ عبدالقدوس الأنصارى أول من كتبها كما أسلفت ، ثم ظلّت تكتب وتنشر بعد ذلك فى جميع الصحف والمجلات ، بل منها مانشر فى كتب تحمل أسماء أصحابها . وقد برهن إقبال الكاتبين على كتابتها عندنا ، أنها أشد فنون الأدب إغراء بالممارسة ، وأنها ماتزال لها القدرة السحرية على اقتناص ضحاياها ، ولآخر الأدلة على هذه الحقيقة ـ إن كانت تحتاج الى دليل ـ نتيجة المسابقة التى طرحتها جمعية الثقافة والفنون فى عام ٣٩٩ ، إذ نجد أن عدد القصص التى دخلت المسابقة قد بلغ مئة وخمس عشرة قصة كتبها مئة وعشرة من الكتّاب ، . . وماأصابنى بالدوار لحظات ، أن أجد لجنة من كبار الجامعيين عندنا ، تحكم بالفوز لخمس عشرة قصة ، وهذا العدد من الفائزين ، وليس (فى الليمون) . وليس لى أن اعلّق بشىء ، الى أن اقرأ هذه القصص فى الكتاب الذى جمعها بعنوان : (أذرع الواحات المشمسة) ولسوف أكون سعيداً بلاحدود ، إذا وجدت هذه القصص جديرة بالفوز حقاً ، إذ ليس قليلاً ابداً ان يظهر فى بلادى هذا العدد الضخم من كتاب القصة الناجحة ، وهى كما أقول دائما (القمة الشاهقة والمرتقى الشامس) بين جميع فنون الأدب على الاطلاق .

وعلى أية حال ، فلابد أن أسمّى هذا الأقبال على كتابة القصة عندنا ـ وفى العالم العربى ـ (ظاهرة) جديرة بالتأمل والدرس ، ولابد ـ فى نفس الوقت ـ من أن ارد بعض الاسباب الى تلك الخصيصة التى تكمن فى طبيعة العمل القصصى ، وهى الاستدراج والإغراء ، ولذلك فما أكثر ضحاياها والمعذّبين بلعبتها الماكرة الخادعة حتى بين الكبار والأعلام من الكتّاب . وحسبنا فى العالم العربى ، أن نذكر قصة (ساره) للمرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد ، وأن نقارنها بأى عمل قصصى ناجح فى مصر

نفسها ، لنجد أنها لاتصمد للمقارنة ، ويتعذر أن يحكم لها بالنجاح كقصة يكتبها ذلك العبقرى الفريد . . فاذا إنتقلنا الى بلد كانجلترا ، فاننا نجد (ويليام سومرست موم) وهو الذى أجمع النقاد فى العالم على أنه أعظم من كتب القصة (القصيرة) فى القرن العشرين . . نجده يتحدث فى أواخر أيامه عن مرّات فشله الذريع المتكررة فى محاولاته الأولى لكتابة القصة ، وعن ذلك الأسلوب الجاف والمتزّمت الذى كان الناشرون يرفضون به نشر قصصه . . والرائع حقا أن (ويلى) كما يسميه خلّص أصدقائه ، يعترف ببساطة حلوة محبّبة ، أن هؤلاء الناشرين كانوا على حق ، وأن مارفضوه من قصصه كان لايستحق إلا الرفض .

ولكن هناك حقيقة عن المراحل التى اجتازتها القصة فى تاريخها الطويل ، لتصل إلى هذا المستوى الرفيع الذى بلغته اليوم ، يحسن أن لايفوتنا الالتفات اليها ، وهى انها كجميع الفنون لم تبلغ هذا المستوى ، ولم تصبح الفن الذى فتح أبواب الخلود لعمالقة الأدب العالمى الاّ بعد عشرات من القرون ، ومئات لاحصر لها من التجارب والمحاولات ، قد يكون صحيحا أنها بدأت بقصص أعمال السحرة فى الأدب المصرى القديم ، التى رواها أبناء خوفو ، لأبيهم ، قبل مايقرب من الفى سنة قبل الميلاد ، ثم مرت بقصص « المهابهارتا » الهندية التى يرجع انها تعود إلى ما قبل ٥٠٠ سنة قبل الميلاد ، ثم أساطير الصين التى لا حصر لها ولاتحديد لبدايتها وبعد ذلك ، فى الأدب العربى ، أو فى اللغة العربية على الأصح ، حكايات (ألف ليلة وليلة) التى يرجح إنها الحكايات التى تناقلها الرواة بعد الفتوحات الاسلامية ، ثم جاء من دوّنها دون أن ينسبها الى نفسه فظلّت مجهولة النسب ، وإذا كان هذا فى الشرق ، فان تطور القصة فى الغرب يعود بنا ـ كبداية ـ الى ملاحم الإلياذة والأوديسا لهوميروس والى (أنييد) لفيرجيل ، وقد يتوقف فترة ، عند قصص التوراة والانجيل ، ثم إذا اضطررنا فى هذه اللمحة الخاطفة الى تجاوز العصور الوسطى وعصر النهضة ، ثم القرن السابع عشر إلى نهاية القرن التاسع عشر ، حيث تتألّق اسماء أونوريه دى بلزاك ، وجوستاف فلوبيرت ، وستيندال (وهو الأسم الرمزى لمارى هنرى بيل) فى فرنسا ، ثم فيودور دوستويفيسكى ، وتولوستوى ، وايفان تورجينيف فى روسيا ، وفى نفس الوقت ، نشأة الرواية التاريخية أوميلادها على يد سيروالتر سكوت فى انجلترا ، حيث شهد العصر أثرها فى فرنسا فى رواية أحدب نوتردام ، لفيكتور هوجو ، ثم فيما

تلاحق من روايات اسكندر دوماس الأب مثل (الفرسان الثلاثة) و (الكونت دى مونت كريستو) ، فاذا انتهينا الى (ويليام ذاكيرى) وتشارلس ديكنز وجورج ايليوت فى انجلترا ، فقد بلغنا مرحلة من إزدهار فن الرواية ، قد يتعذّر أن نستبعد بصماته على الكثير من القصص التى ماتزال تكتب أو تقرأ حتى اليوم . .

أما فى القرن العشرين ، وهو الذى شهد حربين عالميتين ، وشهد ميلاد السينما الصامتة أولا ثم الناطقة ، وبعدها الملونة ، بشاشتيها العادية ، والعريضة ، والراديو ، وأخيرا التليفيزيون بكل امكانياته وملحقاته ، فقد ازدحمت مسيرة الرواية بكتابها ، إلى حد يكاد يكون متعذّرا أن تحصى عدد الروايات التى تظهر فى الأسبوع الواحد ، فضلا عن الشهر أوالسنة ، على أن فترة مابعد الحرب العالمية الثانية ، لابد أن تمتاز فى منتصف القرن ، بجورج أورويل ، وهو الاسم الرمزى لـ (اريك آرثر بلير) الذى يذكر له النقاد قصتيه السياسيتين (مزرعة الحيوان) و (الف وتسعمئة واربعة وثمانون) ، وبزعيمى المدرسة الوجودية (جان بول سارتر ، والبرت كامو) ورائد مدرسة العبث (صامويل بيكيت) الذى يكتب بالفرنسية ثم يترجم مايكتب إلى الأنجليزية ، كما يمتاز الربع الثانى والثالث من القرن فى روسيا بمكسيم جوركى ، وبوريس باسترناك المعروف بروايته التى ترجمت الى أكثر لغات العالم ، (د كتور جيفاكو) ، ونوبوكوف كاتب (لوليتا) وأخيرا سولجينيستين الذى أنشق وأصبح يعيش بافكاره وقصصه التى ماتزال تصدر ، فى أمريكا .

وبعـــــد :

فذلك استطراد لم يكن منه بد ، كوقفة نرى فيها بنظرة طائر ، واقع العمل القصصى فى العالم العربى ، وفى المملكة ، فى أمل صادق متلهّف أن نشهد ميلاد كتاب للقصة بمفهومها الشامل ، وللرواية على الأخص ، يسدون عندنا فراغا ظل يتثاءب ـ فى تقديرى ـ طيلة مايزيد عن أربعين عاما ، . . فاذا استطاعت رواية د . أمل محمد شطا أن تضع بهذه الرواية لبنة صغيرة ، ولكنّها قوية متماسكة ، فانها البداية أوالخطوة الأولى فى مسيرة الألف ميل .

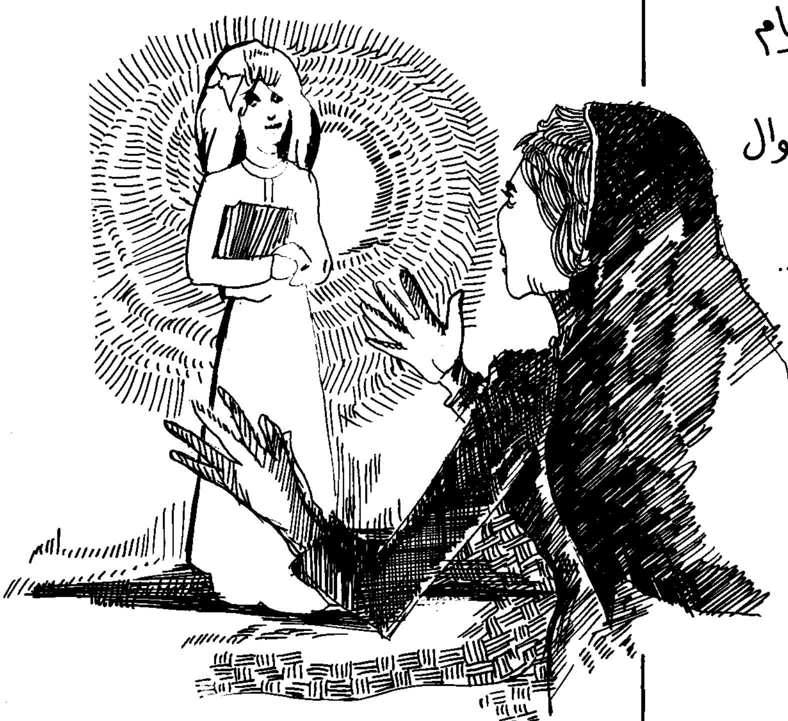
جدة : فى ١٨ ذى القعدة عام ١٣٩٩هـ
الموافق : ٩ أكتوبر عام ١٩٧٩ م

عـزيز ضـياء

غداً أنسى

الفصل الأول

بعد أن رأيتك ...
بعد أن أحسست بلذة
الشعور بالدفء والحنان
بين يديك - بعد أن أحسست
ولأول مرة في حياتي بهذا
الحب الدافق يخرج من
أعماقي ويخرج من أعماقك ...
شعرت بالندم على أيام
عمري الضائعة .
لقد حرمني منك طوال
هذه السنين ولن
أسامحه يا أمي ...
لن أسامحه
ما حييت .



- هناك امرأة بالباب تريد الدخول لمقابلتك يا سيدتى .

- وما الغريب فى الأمر ... هل هى المرة الأولى ؟

- دعيها تدخل .

- أمرك يا سيدتى .

- ولكن مظهرها غريب ، ظننتها فى بادىء الأمر جاءت تطلب احسانا ، ولكنها أصرت على مقابلة مديرة المدرسة ، وتدعى أنها أم لإحدى الطالبات ، ولكنى ...

وقاطعتها المديرة صائحة :

- يا لك من ثرثارة ... اغلقى فمك واذهبى لإحضارها .

فخرجت المرأة من فورها ، وأغلقت الباب خلفها .

واستدارت نوال مرة أخرى ... وعادت تتطلع من خلال النافذة .

كانت تقف الى نافذة بجوار مكتبها ، تحملق باهتمام الى منزل متهدم مهجور . لم يكن هناك شىء يستحق النظر اليه على الإطلاق ، لم يكن هناك سوى أكوام من القمامة والحجارة والاخشاب . ولكنها بدت من شدة اهتمامها وكأنها باحثة تتطلع من خلال المجهر ، أو أنها تراقب فيلما سينمائيا مثيرا . ولكن من يعرف الحقيقة يعجب لها ! كانت لا تمل من وقفتها هذه كلما سنحت لها الفرصة تراقب الفئران المتناثرة هنا وهناك ، تعدها وتحصيها ، وتلاحظ حركاتها وجحورها . وبين حين وآخر كانت ترمى اليها بقطع صغيرة من الجبن ، تتكاثر عليها الفئران .

كانت تجد لذة عجيبة وهى ترى الفئران الصغيرة . تأكل بشراهة شديدة ، وكل ما فيها يهتز ويرتجف وكأنها لم تذق الطعام منذ أيام .

وأحست بحركة خلفها ، فاستدارت .. فوجدت امرأة تقف الى جوار الباب وقد أطرقت برأسها الى الارض .

كانت ضئيلة الحجم ونحيلة الى درجة كبيرة .

بالتأكيد هى غريبة عن البلاد ... ولكن من أين جاءت ... من موريتانيا ؟ لا يبدو ذلك ، من الهند ؟ لا أظن ، ربما جاءت من ماليزيا ؟ ليس لى شأن بها . يا لها من انسانة غريبة الشكل .

لماذا لم تشعرينى بوجودك قبل الآن ؟ ولم ترد المرأة ، ورفعت رأسها ، وأخذت تتطلع إليها فى بلاهة شديدة .

هل أنت خرساء ؟ ... اقتربى هنا ... ماذا تريدين ؟ .

واقتربت المرأة بخطوات صغيرة بطيئة ، ووقفت أمام المكتب ، وحاولت أن تبتسم فزاد ذلك من بلاهتها وقالت : السلام عليكم .

ـ للمرة الاخيرة ... من أنت وماذا تريدين ؟

ـ أريد أن أرى ابنتى ... أنا أمها ... ابنتى أنا ... هنا فى المدرسة .

كانت تتكلم بصعوبة ولكنة شديدة يصعب فهمها ، وكانت تهز رأسها وتحرك يديها مع كل كلمة حتى تساعدها فى التعبير عن مقصدها .

ـ وما اسمها ـ ما اسم ابنتك ؟

ـ إسلام ... إسلام عبد المجيد .

ـ ماذا ؟ .. إسلام عبد المجيد ... اسلام ابنتك أنت . ؟ غير معقول ! !

وما أن سمعت المرأة هذه الكلمة ، حتى اندفعت كالمجنونة تجاه المديرة ، وأخذت تقبل يدها ورأسها وهى تصيح :

ـ ابنتى أنا ... أريد أن أرى ابنتى أنا .. أنا أمها ... إسلام ابنتى أنا ...

وكانت الأخيرة تدفعها دفعا بعيدا عنها ، وقد أصابها شيء من الخوف .
- لنرى .. لنرى .. سوف أحضرها اليك ، فقط إجلسى بعيدا عنى .
وراجعت المديرة أوراقا أمامها ، وهى تراقب المرأة فى حرص وخوف .
- إسلام لم تحضر اليوم الى المدرسة ، تستطيعين الحضور غدا ان أردت رؤيتها .
فاندفعت اليها المرأة مرة ثانية ، وجثت على ركبتيها ، تحاول أن تقبل قدميها ، وهى تصيح فى وله شديد :

- ابنتى أنا ... ابنتى أنا ... أنا أمها ... اسلام ... أنا أمها ... ابنتى أنا ... دعينى أراها ، أسألك بالله ابنتى ... دعينى أرى ابنتى ....
- صدقينى انها لم تأت اليوم الى المدرسة ، ولكن أعدك اذا أتيت غدا فسوف تتمكنين من رؤيتها .. ليس بإمكانى عمل أى شيء الآن .
وأسقط فى يد المرأة ، وانخرطت فى بكاء مرير ، وتكومت على أرض الغرفة تنتحب فى بؤس شديد .
كانت تبدو تعسة حزينة الى أبعد الحدود ، ثم أخذت تئن أنينا خافتا وتتمتم :
- خمسة عشر عاما لم أرها ، خمسة عشر عاما وأنا اعيش على أمل أن أراها . أين هى بالله عليك ابنتى ... ابنتى أنا ؟
- خمسة عشر عاما ؟ ! وأين كنت طوال هذه المدة ؟ .
- لقد أتيت من بلاد بعيدة ... من جزيرة جاوه . هل تسمعين عنها ... أنها بعيدة جدا . حضرت لأرى ابنتى ، لقد أخذها أبوها بعيدا عنى وهى فى الثالثة من عمرها . دعينى أراها ... دعينى أراها .

وأحست نوال بغصة فى حلقها من شدة الانفعال ، وانحنت على المرأة ، ورفعتها عن الأرض ، وأمسكت بيديها وأخذت تتطلع اليها .
كانت لا تزال تبكى ، وفى عينيها نظرة حزينة ذليلة تعسة كان لها وجه رقيق ناعم ... بدا جميلاً بالرغم من شحوبه . كل ما فيها صغير ، أنفها .. فمها ..

عيناها ، وكفاها صغيرتان ناعمتان ، بدت ملابسها نظيفة إلى حد كبير بالرغم من انها كانت تبدو بالية من كثرة الاستعمال وأعيد إصلاحها هنا وهناك فى أماكن متعددة . كانت ترتدى إزارا طويلا ، ملونا ، ضيقا إلى درجة يتعذر السير معه ، وبدا خصرها نحيلاً وعظامها بارزة من الجانبين . وكانت تخفى جزءا من شعرها وكتفيها بغطاء أبيض رقيق ، وظهر شعرها من الأمام ، أسود كالليل ، شديد النعومة .

ـ اسمعى ، لا بد أن تهدئى ، ليس فى يدى أى شىء الآن . وهذا وعد منى ، اذا أتيت غدا سوف تتمكنين من رؤيتها ، سوف اتصل بإسلام شخصيا حتى أتأكد من حضورها غدا ، اذهبى الآن وغدا صباحا ستكون إبنتك فى انتظارك فى هذه الغرفة .

ونظرت اليها المرأة نظرة عاتبة غير مصدقة ، ثم أخذت تتطلع حولها . وفجأة انفلتت من بين يديها والتقطت مصحفا من فوق المكتب وضعته على رأس نوال وهى تقول :

ـ مصحف شريف ... كتاب شريف ...

وفهمت هذه مقصدها ، فالتقطت منها المصحف وأمسكته بيدها وقالت :

ـ ها أنا أقسم لك أننى سأعمل ما بوسعى لتتمكنى من رؤية إسلام غدا ، كونى مطمئنة ، أرجوك أن تذهبى الآن ... أذهبى وعودى غدا .

وبدا على المرأة شىء من الطمأنينة . ولم تجد هناك بدا من الانتظار الى الغد . لقد انتظرت خمسة عشر عاما ، أفلا يمكنها الإنتظار يوما آخر . واستدارت وفى خطوات بطيئة غادرت الغرفة .

لم تستطع نوال أن تتوقف عن التفكير فى المرأة طوال النهار . وفى اليوم التالى بكرت فى الذهاب الى المدرسة .

وما أن هبطت من العربة حتى فوجئت بها تقف أمام الباب . يا للمرأة التعسة ... ماذا تفعل فى هذا الوقت المبكر ؟!. وصاح الحارس :

ـ هل تصدقين يا سيدتى ، لقد قضت هذه المرأة الليل بطوله على وقفتها هذه

أمام الباب !

ونظرت إليها ... كانت تبدو أكثر شحوبا من ذى قبل .

وما أن اقتربت منها حتى بادرتها هذه قائلة :

ـ لا تنسى ... المصحف الشريف ، لقد أقسمت .

وابتسمت نوال ، واصطحبتها الى الداخل .

سارت معها فى طرقات المدرسة ممسكة بيدها وهى تتلفت حولها وما لبثت أن سألتها :

ـ أين هى ؟ ... أين إسلام ؟

فقالت نوال : لم تحضر بعد .

فابتعدت المرأة فجأة وصاحت :

ـ لقد قلت غدا ... قلت احضرى غدا ، وأقسمت على المصحف الشريف ، تذكرى لقد اقسمت على المصحف الشريف .

ـ وبعدها معك ... ألا ترين أن المدرسة خالية من الطالبات . هل تريدين من ابنتك أن تبيت هنا ؟ إن لك إبنة جميلة ناعمة ، سترينها بعد قليل ، لن تمر ساعة واحدة إلا وتكون قد حضرت .

ـ ساعة ؟ .. ساعة أخرى ؟ .. هل سأنتظر ساعة أخرى ... ؟ لا أستطيع ... لا أستطيع الإنتظار أكثر من ذلك أريد أن أراها الآن ... الآن .

وأخذت تبكى فى جنون ، وتضرب رأسها بكفيها .

ـ لا بد أن تهدئى وتكونى عاقلة . الم تفكرى لو أن إبنتك رأتك على هذه الحالة كم ستتألم .. ؟ هل تريدين لإسلام ان تتألـم ... ؟ هل تريدين ان تسببـى لهـا الحزن ؟ .

وذعرت المرأة لهذه الكلمات ، فجففت دموعها سريعا وهى تقول : لا .. لا ...

سأنتظر .. سأنتظر ، لن أجعلها تحزن أبدا ... لن أجعلها تتألم .

وسارت خلفها طائعة حتى غرفتها .

لم تمض نصف ساعة حتى كانت ساحة المدرسة تضج بالطالبات ، فتيات صغيرات يخطون حثيثا نحو الشباب ، زهرات تتفتح للدنيا ... ممتلآت بالحيوية وحب الحياة ، لا يتوقفن عن الحركة واللعب ، وضحكاتهن تملأ المكان .

انتظرت المديرة حتى دخلت الطالبات الى الفصول ، وانتظمت الدراسة ، وأرسلت فى طلب إسلام .

كانت المرأة طوال هذه المدة تجلس صامتة على أرض الغرفة فى مواجهة الباب ، لا ترفع عينيها بعيدا عنه ، وكلما دخلت فتاة ، حملقت فى وجهها ، وبدت كالمتحفزة،ثم تنظر الى المديرة متسائلة . وكلما مر الوقت ازداد ارتباكها ، وبدت أكثر تحفزا ، وأكثر توترا .

وفجأة ... دخلت الى الغرفة فتاة طويلة .. ناعمة .. رقيقة ...

ـ ادخلى يا إسلام واغلقى الباب من خلفك .

وصرخت المرأة من أعماقها صرخة أفزعت الفتاة ، فوقفت جامدة فى وسط الغرفة تنظر إليها ، والمرأة تحملق فيها فاغرة فمها كالمشدوهة ، وللحظات طويلة لم تبد حراكا ، وبعد قليل أفاقت لنفسها ، وحاولت النهوض فلم تستطع ، وخذلتها قدماها فسقطت على الأرض مرة أخرى ، فأخذت تزحف على ركبتيها وهى تلهث ، وتخرج صوتا أشبه بحشرجة الموتى ، حتى وصلت إلى مكان الفتاة فاحتضنت ساقيها بقوة ، ودفنت رأسها فيهما ، وأخذت تقبلها فى وله شديد ، وهى تنتحب وتئن وتتمتم :

ـ إسلام .. ابنتى يا حبيبتى .. ابنتى أنا ... يا حبيبتى .. يا حبيبتى ، إسلام .. ابنتى يا حبيبتى ... وسقطت مغشيا عليها .

أسرعت المديرة إليها . وكانت الفتاة راكعة بجانبها تنظر الى وجهها وقد أخذتها

المفاجأة . وبدون أن ترفع عينيها سألت فى صوت ضعيف :

ـ من هى ... هل هى ... ؟

ـ إسمعى يا إسلام ... أعرف أنك فتاة عاقلة .... لقد حضرت هذه المرأة أمس فلم تجدك ، وباتت ليلتها أمام باب المدرسة تنتظر حتى الآن حتى تتمكن من رؤيتك ، لقد قالت لى إنها ... أمك .

كانت كل خلجة فى وجه الفتاة تنم عن مدى ما تشعر به من ألم وانفعال . كانت ترتعش كعصفور صغير ، بدت كالمذهولة ، فقد كان الموقف أكبر من احتمالها .

ـ ولكن كيف ؟ ! إن أمى قد ... أقصد أبى قال إن ....

ـ قال إن أمك قد ماتت فى صغرك ... أعرف هذا . ولكن صدق مشاعر هذه المرأة وهذا الشبه العجيب بينكما ، هذا الشبه الذى لا يمكن أن تخطئه العين ، جعلنى أؤمن أنها أمك . لقد ولدتك فى جزيرة جاوة ، وأبعدك أبوك عنها وأنت فى الثالثة . لقد تعذبت كثيرا حتى تحضر لرؤيتك ، أرجوك أن تتصرفى معها بحكمة ، أرجوك أن تكونى رقيقة معها .

وضعت الفتاة كفها على وجه المرأة وأخذت تتحسسه ...

ـ أمى .... هذه أمى .... أعرف أنها أمى ... قلبى يحدثنى أنها أمى ....

وانحنت على المرأة وقبلتها وهى تردد :

ـ إنها أمى ... أعرف أنها أمى . وانسابت دموعهاعلى خديها .

ـ أفيقى يا أمى ... أفيقى .... أرجوك أن تفيقى ... أرجوك أن تفيقى . ولم تتمالك نفسها ، فانكفأت على المرأة تقبلها وتبكى .

لم تستطع نوال أن تفعل شيئا ، ولم تستطع أن تحتمل أكثر من ذلك ، فاندفعت من مكانها فى اتجاه النافذة ، ووقفت هناك وظهرها للفتاة .

أخذت تضغط بكلتا يديها على إطار النافذة وهى تحاول جاهدة أن تحبس دموعها ، وأن تخفى انفعالها .

كانت تكره أن يراها أحد وهى تبكى ، أو وهى متألمة أو مشفقة . كانت تعتبر أن هذه الأحاسيس وأن البكاء دليل على الضعف ، وكانت تكره أن تكون ضعيفة .

كانت تحب أن يراها الناس دائماً قوية صلبة ، ولم يكن يهمها أبدا أن يقال أنها قاسية القلب ، متبلدة الحس والشعور ، ولكن المهم أن تظهر أمامهم كقط مفترس وليس كفأر مذعور .

وعادت بها الذاكرة الى الوراء سنوات بعيدة ، عندما كانت طفلة صغيرة ربما لم تتعد الثامنة من العمر .

كانت مشاعرها رقيقة الى أبعد الحدود ، عواطفها فياضة ، مرهفة الحس ، هشة سريعة الانفعال ، تتألم لأقل الأسباب ، وتبكى لأقل الأسباب .

كانت تبكى إذا رأت قطا جائعا ، أو طائرا يذبح ، أو عصفورا فى قفص . كانت تبكى إذا رأت أحدا يبكى أو أحدا يتألم .

حتى زميلاتها فى الفصل ، كثيرا ما كن يحاولن إيذاءها أو السخرية منها ، أو سرقة طعامها ، ولكنها لم تكن تشكو أبدا ، حتى لا تكون السبب فى أى أذى أو ألم قد يصيب واحدة منهن .

وكانت هناك أيضا أبله سعدية مدرسة الحساب ... أرطال الشحم المتحركة ، ورائحة عرقها تحرق أنوفهن الصغيرة ، هذه اللعينة ... طالما سخرت منها وضحكت

عليها . كانت تناديها دائما بالفأر المذعور ، ولم تكن تدرى ، أو لم يكن يهمها أبدا هذا الألم الذى كانت تسببه لها .

حتى كان ذلك اليوم ....

إنها لا زالت تذكره الى الآن ، يوم أن ضاقت أمها بها وببكائها وصاحت فى وجهها :

– إنك بالفعل مثل الفئران وليس هناك واحد فى هذا العالم يحب الفئران الضعيفة ، وفى يوم من الأيام سيأتى قط كبير ليفترسك ، أو يرمى إليك الناس بطعام مسموم حتى يتخلصوا منك .

ومن يومها ، تحجرت الدموع فى عينيها ....

كانت المرأة تجلس فى أحد جوانب الغرفة وقد احتوت ابنتها بين ذراعيها وكأنها تحاول أن تخفيها بداخلها ، كان وجهها مشرقا ، والسعادة تشع من عينيها ، وكأنها لا تصدق نفسها . وكانت تمسح على شعر ابنتها وكتفيها ، وتربت على رأسها بحنان بالغ ، وبين حين وآخر كانت تقبلها بحب وشوق لا يوصف .

أما الفتاة فلم تكف عن البكاء .

وأبعدتها المرأة قليلا عنها ... واحتضنت وجهها بين كفيها وأخذت تتأملها .

–إنك جميلة جدا يا إسلام ... لم أر فى حياتى فتاة أجمل منك . كيف يمكن تكون لى إبنة جميلة إلى هذه الدرجة ؟ ! ولكن أخبرينى ، لماذا تبكين ؟ ... هل أنت حزينة ألست سعيدة مثلى . أنظرى الى يا ابنتى .... أنا أمك ... هل تحبيننى ... أخبرينى يا صغيرتى ألا تحبيننى ... ؟

– نعم أحبك ... أحبك كثيرا وافتقدتك كثيرا ، ولكن لماذا تغيبت طوال هذه المدة ، أما كان يمكنك الحضور قبل هذا من أجلى . لماذا يا أمى ... لماذا تركتنى أعيش طفولتى وحيدة يتيمة وأنت على قيد الحياة ؟

وعادت المرأة فاحتضنتها بين ذراعيها بقوة ، وأخذت تقبلها ، وقالت وهى تبكى :

ـ ماذا أقول لك ... إن أحدا فى هذا العالم لا يمكن أن يتصور كم تعذبت ، وكم قاسيت . لقد مرت على أيام كثيرة فكرت فيها جديا أن أتخلص من حياتى . إن الأمل فى أن أراك ، هو السبب الوحيد فى بقائى على قيد الحياة إلى الآن .

واعتدلت المرأة قليلا ، وأدخلت يدها تحت صدارها وأخرجت منديلا حريريا مطويا ، وضعته على الأرض وأخذت تفكه بعناية وحرص شديد .

كان بداخله صورة صغيرة بحجم الكف ، تأملتها للحظات بحب ثم ناولتها لإسلام .

ـ أنظرى يا ابنتى ... أنظرى الى هذه الصورة .

ونظرت إسلام ، كانت صورة لرجل وامرأة وقفت بينهما طفلة صغيرة .

وصاحت الفتاة :

ـ هذه صورة أبى ، أليس كذلك يا أمى ... وهذه أنا ، نعم هذه صورتى وأنا طفلة . ومن هذه السيدة .... ؟ يا إلهى ... كم كنت جميلة يا أمى ... كم كنت رائعة ... ! وصمتت قليلا ونظرت الى أمها وقالت فى حزن :

ـ لكم تغيرت ... يا حبيبتى ، ماذا فعلت بك الأيام . ؟ !

ـ لا عليك ، لقد أصبحت امرأة عجوزا .

ـ لا تقولى هذا ، أعرف أنك لا زلت شابة . آه يا أمى كم تعذبت ! لماذا لم ترسلى بخطاب الى أبى ، لماذا لم تحاولى الاتصال بنا ؟

ـ لقد فعلت ، أرسلت له عدة مرات خطابا تلو الآخر ولكن يبدو أن أباك كانت لديه مسئوليات كثيرة ، ولم يكن لديه الوقت ... أقصد أنه ربما ...

ـ يا إلهى ... لم أكن أعلم أن أبى بهذه القسوة ... لم أكن أعلم .

ـ لا تقولى هذا ... انه أباك يا ابنتى ، ولا تنسى أنّ الحق معه . إن رجلا عظيما مثل السيد عبد المجيد لا يليق أن تكون له زوجة مثلى .

ـ تدافعين عنه ... بعد كل ما فعله بك تدافعين عنه ؟ !

ـ دعينا من كل هذا الآن ، فقط دعينى أنظر اليك . صدقينى ... عندما رأيتك سامحته ، ونسيت كل ما حدث ، ليس هناك امرأة فى العالم أسعد منى الآن ، أرجوك يا ابنتى لا تجعلينى أشعر أننى قد كدرت صفو حياتك ، صدقينى لقد نسيت كل شىء .

ـ إن كنت قد سامحت ، إن كنت قد نسيت ، فكيف لى أن أنسى ... ؟

لقد عشت عمرى أتمنى لو كانت لى أما لها نصف حنانك ، كنت فى حاجة إليك يا أمى ، كنت فى أشد الحاجة إليك ، ولكنى رضيت بقدرى وصبرت ، صبرت يا أمى . ولكن بعد أن رأيتك ، بعد أن أحسست بلذة الشعور بالدفء والحنان بين يديك ، بعد أن أحسست ولأول مرة فى حياتى بهذا الحب الدافق يخرج من أعماقى ، ويخرج من أعماقك ، شعرت بالندم على أيام عمرى الضائعة . لقد حرمنى منك طوال هذه السنين ، ولن أسامحه يا أمى ... لن أسامحه ما حييت .

وسادت فترة من الصمت بينهما .

ـ هيا يا أمى ... قومى معى الى البيت ، سوف أبيت الليلة بين أحضانك ، هيا يا أمى لا تضيعى الوقت ، يكفينا ما ضاع من العمر .

وظلت المرأة على صمتها ، وقد غشت وجهها سحابة من الحزن .

ـ اسمعى يا إبنتى ، ان كنت تحبيننى حقا فلا تطلبى منى الذهاب معك . لا أريد أحد أن يعرف أنى قد حضرت الى هنا أو أنى رأيتك .

ـ تقصدين أبى ... ؟

ـ نعم . لو عرف أبوك فلن يغفر لى أبدا ، وربما منعك من الحضور الى المدرسة أو عمل على ترحيلى من البلاد ، أرجوك يا ابنتى .

ـ لا يا أمى ، لن أدعك تذهبين ، سوف نعود سويا الى البيت ، إنه بيتك يا أمى ، إنه منزلك ، ولن يستطيع أبى أن يفعل شيئا ، سوف أُمنعه ... سوف أمنعه .

ـ بل يستطيع ... يستطيع يا ابنتى ، أنا أعرفه جيدا . لو كنت تريدين حقا رؤيتى كل يوم ، لو كنت حريصة بالفعل على ألا تحرمينى منك مرة أخرى ، فلا تدعيه يعرف بوجودى أبدا ، ولا تشعريه أنك قد رأيتنى اطلاقا .

وصمتت إسلام ولم تجب .

ـ عدينى يا ابنتى ، عدينى حتى يطمئن قلبى .

وبدت الفتاة كالمستسلمة ، وقالت بصوت حزين :

ـ أعدك يا أمى ... أعدك يا أمى ..

الفصل الثاني

وفي بعض الأحيان، كانت
يدك تمتد عن غير قصد
فتمسح على شعري وأنا
أقف بجانبك،
ويدب الأمل في صدري...
ربما سينحني أبوك
بعد قليل ويقبلك
ويحضنك بين يديه،
ولم لا؟ ربما حملك أيضاً
بين ذراعيه وقال لك
انه يحبك كثيراً، بل ربما
أخذك معه الى النزهة.
وهكذا أظل أحلم وأحلم،
ولا أفيق إلا بعد أن
تكون قد ذهبت
بعيداً، وتركت
في يدي
بعض النقود...



عندما وصلت إسلام إلى المنزل ، لم يكن والدها قد عاد بعد من الخارج . صعدت إلى غرفتها سريعا ، وألقت حقيبتها جانبا ، وأغلقت الباب جيدا ، ثم ارتمت على فراشها منهوكة القوى .

كانت صورة أمها بوجهها الرقيق ونظرتها الحانية تملأ روحها وكيانها ، ولا تفارق مخيلتها .

بعد خمسة عشر عاما يا إسلام ... بعد خمسة عشر عاما من الوحدة واليتم ، أخيرا لك أم ...

سامحك الله يا أبى ...

ومالت قليلا ، واحتضنت وسادة صغيرة بجانبها .

آه يا أمى ... كم أحبك ، كم أنت رائعة ، ليتك كنت بجانبى الآن ! أين أنت ، وماذا تفعلين ؟ يا إلهى ! ! ... لقد نسيت أن أسألك أين ستبيتين ليلتك اليوم ؟ آه يا حبيبتى ... آه يا أمى !

وأحست بخوف وألم يعتصران قلبها ، فانخرطت فى بكاء مرير .

وفجأة ... وبينا هى على هذه الحال ، سمعت صوتا كالانفجار ، وفتح باب غرفتها على مصراعيه ، وفزعت الفتاة وقفزت من مكانها .

كان السيد عبد المجيد يقف على باب الغرفة والشرر يتطاير من عينيه ، وقد أمسك بأمها وقد تمزقت ملابسها والدم ينزف من فمها وأنفها ، وأخذ يجذبها من شعرها ، ويسحبها على الأرض تجاه النافذة ، ويركلها بقدميه ، وهى تصيح من شدة الألم .

وصرخت الفتاة ، واندفعت اليه كالمجنونة تحاول تخليص أمها ، فدفعها أبوها

بقوة ، فسقطت بعيدا على الأرض وارتطم رأسها بالحائط .

وقبل ان تستطيع النهوض مرة أخرى ، اندفعت الى داخل الغرفة ثلاثة كلاب متوحشة ، أشار اليها أبوها إشارة معينة ، فهجمت على أمها تحاول أن تنهش لحمها ، وإسلام تصرخ فى فزع شديد .

ولكن الكلاب ما لبثت أن اندفعت مرة أخرى مسرعة الى خارج الغرفة . ولم تفهم إسلام ما حدث ، حتى سمعت صرخة مدوية أطلقها السيد عبد المجيد .

كان يقف وسط الغرفة يحاول تخليص رقبته من ثعبان ضخم ألتف حولها ، كان يجاهد بكل قوته دون فائدة والثعبان يزداد التفافا من حوله . وفى النهاية سقط على الأرض وقد احتقن وجهه وجحظت عيناه .

واندفعت إسلام تحتضن أمها فى خوف شديد .

ـ هيا يا أمى ... هيا نخرج من هنا ... هيا نذهب بعيدا .

ولكن أمها لم تبد حراكا ، كانت تنظر الى زوجها كالمشدوهة والفزع يرتسم على وجهها . ولم تلبث ان اندفعت اليه تحاول تخليصه من الثعبان .

ـ اتركيه يا أمى ... دعينا نذهب بعيدا ...

ولكن المرأة أخرجت من صدرها مدية صغيرة وأخذت تضرب بها رأس الثعبان .

وعادت إسلام تجذب أمها :

ـ اتركيه يا أمى ليموت ، إنه لا يستحق الحياة .

وأخذت تصرخ بجنون : هيا يا أمى ... هيا يا أمى ... أتركيه قبل أن يقتلك الثعبان أنت الأخرى ، هيا يا أمى ...

وأفاقت الفتاة من نومها فزعة وهى لا زالت تصرخ ... واعتدلت فى فراشها ، وأخذت تنظر حولها وهى لا تصدق نفسها ، كان قلبها يخفق بعنف ويداها ترتعشان .

لم تعرف كم مضى عليها من الوقت وهى نائمة . ونظرت الى ساعتها ، يا إلهى ! ! . لقد مضى أكثر من ساعتين .

وقامت لتوها ، وغيرت ملابسها سريعا ، وهبطت إلى الطابق السفلى .

ورآها الخادم العجوز ..
- إسلام ... لماذا لم تتناولى طعامك الى الآن يا ابنتى ؟ .
- لا أشعر بالجوع ، ليست لدى أى شهية للطعام يا محسون .
ولكن أخبرنى هل عاد أبى من الخارج .. ؟
- منذ أكثر من ساعة ، كان فى زيارة للطبيب ، لقد تناول طعامه بمفرده ، أنه يقرأ فى غرفته كالعاده .

كانت الغرفة هادئة متسعة ، ذات طابع عربى أصيل ، فرشت أرضها بالسجاد الفاخر ، وارتصت فى جنباتها فرش صغيرة واحدة تلو الأخر ، لا تعلو كثيرا عن الأرض ، غطيت بمخمل ملون ، ووضعت عليها مساند عريضة زينت حروفها بحرير أزرق .وتدلت من السقف ثلاثة فوانيس زجاجية ملونة كبيرة الحجم ، تشبه تلك التى نراها فى المساجد القديمة .

عندما دخلت إسلام ، لم ينتبه اليها والدها ، فاتجهت الى أحد الأركان وتناولت كتابا من جانبها ، وأخفت وجهها فيه . لم تكن لديها أى رغبة فى القراءة ، ولكن كانت لديها رغبة شديدة فى مراقبته .

كان الرجل قد اتخذ مجلسه فى أحد جوانب الغرفة فوق واحدة من تلك الفرش الصغيرة ، وكانت إحدى ساقيه ممدودة وقد ثنى الأخرى فوقها ، واتكأ بأحد مرفقيه على وسائد حريرية وقد انهمك فى قراءة صحيفة بين يديه بينما أمسك بمبسم عاجى طويل ، متصل بأرجيلة مذهبة ، يزيد طولها عن المترين . وبين حين وآخر يجذب منها نفسا عميقا فتصدر صوتا أشبه بقهقهة رجل بدين .
كان من يراه فى جلسته هذه ، يظن أن هارون الرشيد . قد بعث إلى هذا العصر مرة أخرى .

لم يكن قد تعد الستين من عمره ، ولكنه بدا أكبر من هذا بقليل . كان ضخم البنية ، يميل الى السمنة ، له بشرة بيضاء مشربة بحمرة خفيفة ، وشارب كثيف لم تعد فيه شعرة سوداء واحدة . وبرغم التجاعيد ، وبرغم فعل السنين بدا الرجل إلى حد ما بهى الطلعة .

أزاحت إسلام الكتاب قليلا ، وأخذت تتطلع الى أبيها خفية وتتأمله :

ـ هذا هو السيد عبد المجيد ، الرجل العظيم ، الذى يحترمه الجميع ، ويخافه الجميع ، وهو لا يهاب أحدا ولا يخاف أحدا .

آه يا إسلام ... إن أباك لم يخف حتى من الله ، لم يخف حتى من خالقه .

لماذا يا أبى ، ... أين كان ضميرك يوم أن فعلتها ، أين كان ضميرك يوم أن رميت بأمى المسكينة وسط أمواج الحياة دون رحمة ، وحيدة ... ضعيفة ، أين كان ضميرك يوم أن انتزعت طفلتها من بين أحضانها وتركتها تحترق لوعة وأسى ؟ أسفى عليك يا أبى ... أسفى عليك !

وانتبه الرجل لوجودها ...

ـ إسلام ... أنت هنا ، لم أشعر بك عندما دخلت الغرفة ، يا لك من قطة شقية .

ولم ترد الفتاة وظلت تحملق فيه فقال مداعبا :

ـ ما بالك تنظرين إلى هكذا ... ألم ترى شابا جميلا مثلى قبل الآن .

وحاولت الفتاة أن تبتسم ...

ـ يا لك من ابنة قاسية القلب ، تتركين أباك العجوز يتناول طعامه وحيدا .. ولكن ما رأيك فى العنب الذى اشتراه محسون اليوم ، إنه كبير الحجم وفى غاية اللذة ، إن الحبة الواحدة منه أكبر من أنفك ...

وانطلق يضحك بصوت عال ....

ولكن الفتاة بقيت على صمتها . وأدرك الرجل أن هناك شيئا ما يضايقها أو

يشغل بالها ، فتشاغل عنها بجريدته بعض الوقت ثم عاد يسألها :

- ما بالك يا ابنتى ... هل هناك شيء فى الأمر ... أخبرينى ؟ .

ولم ترد . ولكنها قامت من مكانها واتجهت اليه وجلست أمامه ، وقالت وهى تحاول أن تصطنع المرح :

- أبى ... حدثنى قليلا عن طفولتى .

- ولكنك ما زلت طفلة ، هل تظنين أنك قد أصبحت شابة ؟

- لا تسخر منى يا أبى ... أرجوك أن تحدثنى عن طفولتى ... حدثنى عن أمى ....

وتغير وجه الرجل ، وقال مراوغا :

- أنا أبوك ... وأنا أيضا أمك .

فقالت الفتاة بشيء من نفاذ الصبر :

- أبى ... أرجوك أن تحدثنى عن أمى .

- وماذا تريدين منى أن أقول لك ؟ لقد حدثتك عنها قبل هذا مائة مرة .!

- كنت صغيرة ، ونسيت كل ما قلته لى ، هيا يا أبى ... هيا حدثنى عنها .

وأخذت تنظر إليه فى شيء من التحدى . بدا مضطربا لا يعرف من أين يبدأ أو ماذا يقول .

وأخذت تحدث نفسها ...

هيا يا أبى ... فلنبدأ رحلة الأكاذيب . دعنى أرى وجهك ولأول مرة فى حياتى وأنت تكذب . هيا يا أبى أسمعنى حكاياتك الملفقة ، أسمعنى كيف حاولت لسنوات طويلة أن تخفى آثار فعلتك الشنعاء .

وبدأ الرجل يتكلم ....

- إن أمك كانت ابنة لرجل عظيم من كبار رجال الدولة فى تونس ، أتى يرأس وفد بلاده للحج ومعه زوجته وابنته وقامت بيننا صداقة قوية ، فزوجنى ابنته ، وأقمنا

الأفراح ثلاث ليالٍ متواصلة .

وعندما كنت فى الثالثة ، اصطحبتنى فى رحلة عمل إلى جزيرة جاوه . ويبدو أنها لم تتحمل مشقة السفر فمرضت وماتت ، واضطررت الى دفنهـا هنـاك ، وعـدت وحيدا .

لكم تألمت لها وافتقدتها ! ! .

وتمتمت الفتاة فى تهكم شديد : شيء مؤثر ... مسكين يا أبى ، يا لك من زوج وفى !

وصمت الرجل لفترة ، وشرد بعيدا ، واكتست وجهه لمحة من حزن . ونظرت إليه الفتاة ....

كانت فى عينيه نظرة غريبة لم ترها من قبل ، وبعد قليل أخذ يتكلم بصوت حزين أحست فيه نبرة من صدق ...

لقد كانت أمك امرأة رقيقة ، لم أر فى حياتى امرأة فى رقتها ، كانت خجولة جدا . كانت تخجل حتى منى أنا . لقد أحببتها كثيرا يا ابنتى . كان شعرها ناعما كالحرير أسود كالليل ، وأغرب مافى الأمر ... لون بشرتها . كانت لها بشرة سمراء خمرية ورثتها عن أم هندية ...

ـ أو كانت أمها هندية ...؟

وفوجيء الرجل . وارتبك . وقال متلعثما :

ـ لا أدرى ... أقصد ربما كان ذلك ... يبدو أننى قد أخطأت فى التعبير ... هيا قومى إلى كتابك ، ودعينى أكمل صحيفتى ، ليس عندى المزيد لأخبرك به .

ولم تزد الفتاة كلمة واحدة ، وقامت من فورها ، وعادت إلى مكانها واصطنعت الانهماك فى القراءه .

أحببتها يا أبى ..؟ تقول أنك أحببتها لرقتها ! الأنك أحببتها لفظتها من حياتك ؟! ألأنها كانت رقيقة بالغت فى قسوتك عليها ؟. أخبرنى بالله عليك ماذا كنت تفعل لو أنك كرهتها ، أو أنها كانت إنسانة شريرة سليطة اللسان . أخبرنى ماذا لديك أيضا من فنون القسوة والتعذيب ؟!

وأنا ... ألم تفكر فى مصيرى يوم أخذتنى من بين أحضان أمى . أم ظننت أن فى استطاعتك أن تعوضنى حنان أمى وحبها ؟!

وتنهدت الفتاة ، وألقت برأسها للخلف وأغمضت عينيها ...

لا يا أبى إنك لم تحاول يوما أن تعوّضنى عنها ، لم تحاول أن تكون لى أما بدلا منها . إنك حتى لم تحاول أن تكون أبا ... أبا حقيقيا يملأ حياتى حبا ورقة وحنانا .

لقد حاولت كثيرا أن أمحو من ذاكرتى أيام طفولتى الشقية . عشت وحيدة فى هذا البيت ، منذ أن فتحت عينى على هذه الدنيا ... عشت وحيدة .

كم كان عمرى وقتها ..؟ خمس سنوات ... ست سنوات ..؟ لا أدرى ، ولكنى أذكر جيدا مدى ما كنت أحس به من وحدة وخوف وأنت معى يا أبى ، تحت سقف بيت واحد .

كنت أستيقظ من نومى مذعورة ، وأشعر برغبة فى أن ألجأ اليك وأرتمى بين أحضانك لأحتمى بك ....

لأحتمى بك يا أبى . وأظل أبحث عنك فى أرجاء البيت أبكى خائفة ملهوفه .

وغالبا ما كنت أجدك فى هذه الغرفة ، نعم يا أبى .... لازلت أذكر هذه الغرفة جيدا وقد ضجت بالرجال ، والدخان ، وأكواب الشاى ، والجميع ينظرون إليك فى إعجاب ، وصوتك وضحكاتك تجلجل بينهم .

وبمجرد أن ترانى ... تختفى الضحكة تماما ، ويتغير تعبير وجهك .

كنت أعجب يا أبى ، كيف كان يمكنك أن تتغير بهذه السرعة فيصبح وجهك مقطبا ونظراتك قاسية ... وتزجرنى ، تزجرنى كأنى كلب أجرب رأيته يقف على بابك .

وفى بعض الأحيان ، كنت أفر عائدة الى غرفتى وقد ازددت خوفا ، وازددت ارتباكا . وأحيانا كنت أندفع إليك غير مبالية ، وأحاول أن احتضنك رغما عنك ... وأقبلك رغما عنك ... وأحبك رغما عنك . فتدفعنى بعيداً وتصرخ مناديا محسون :

– محسون ... ألم أقل لك مائة مرة ألا تدعها تأتى الى هنا ... يالك من غبى هيا احملها الى غرفتها ، ليس لدى وقت لهذا .

نعم يا أبى .... لم يكن لديك وقت لتحتضن فيه ابنتك ، ولكن كان لديك وقت للأصحاب والضحكات والنوادر .

ومرت الأيام ... ومرت السنون ، واعتدت على الوحدة ، واعتدت على الخوف ، واعتدت على إهمالك لى .

أصبحت لا أبرح غرفتى الا نادرا ، ولا أجلس معك إلا على مائدة الطعام ، ولا أنظر اليك إلا من بعد .

وفى بعض الأحيان ، كانت يدك تمتد عن غير قصد فتمسح على شعرى وأنا أقف بجانبك ، ويدب الأمل فى صدرى ... ربما يا إسلام ... ربما سينحنى أبوك بعد قليل ويقبلك ويحتضنك بين يديه ، ولم لا ... ربما حملك أيضا بين ذراعيه وقال لك إنه يحبك كثيرا . بل ربما يأخذك معه الى النزهة .

وهكذا ... أظل أحلم وأحلم ، ولا أفيق الا بعد أن تكون قد ذهبت بعيدا وتركت فى يدى بعض النقود ....

وفى أيام الأعياد ، كنت أقف بين الخدم ، نتلقى جميعا منك النقود والهدايا . كم حاولت أن أنسى هذه اللحظات ونفسى ذليلة ، وقلبى يقطر أسى . لم أكن

أشعر أن لديك أى فرق بين ابنتك وبين خدم البيت ، لم يكن هناك فرق عندك بينى وبين محسون الخادم .

آه يا أبى ... كم تألمت منك ، وكم كنت فى حاجة اليك وأنت لا تدرى .

والغريب أنك كثيرا ما كنت تسألنى إن كنت أحتاج شيئا أو إن كان هناك شىء ما ينقصنى ... وكنت أنظر اليك وأنا أكاد أصرخ فى وجهك ..

لا يا أبى ... لست فى حاجة إلى المال ، لست فى حاجة إلى الطعام ولا إلى الملابس ، ليس هذا ما أريده منك ، إننى فى حاجة إليك أنت يا أبى ، فى حاجة إلى محبتك ، ولكن ماذا أقول لك وأنت لا تفهم ، ولن تفهم أبدا ؟

وبمرور الأيام فقدت حتى الأمل ، وتعلمت أن أعيش بغير أمل ، وظننت أن حبك قد مات فى صدرى ....

ولكنى كنت مخطئة ......

لقد أحببتك يا أبى ... أحببتك طوال عمرى ، ولم أعرف قدر هذا الحب إلا عندما مرضت ، وأحسست أنى على وشك أن أفقدك .

كنت يومها منهكة فى مراجعة دروسى ، وأحسست بضجة غير عادية فى البيت . وأسرعت خارج الغرفة .

كان هناك رجال كثيرون عند باب غرفتك ، والخدم يتحركون بسرعة ، وقد ارتسم القلق على وجوههم .

وشعرت بانقباض فى صدرى ....

وحاولت أن أفهم ماذا حدث ، فلم أستطع ، ولم يهتم أحد أن يجيبنى . وأخذت أجرى كالمجنونة أسأل كل من يصادفنى .. ماذا حدث لأبى ... ماذا حدث لأبى ؟. ولم تكن الإجابة تزيد عن ... لا شىء لا تشغلى بالك ، أباك بخير أو إن أباك متعب قليلا .... وهكذا حتى فقدت أعصابى .

وأخيرا اندفعت إلى محسون وسألته :

ـ محسون ... هل مات أبى ...؟
ـ واهتز الرجل ، وأجابنى على الفور :
لا تقولى هذا يا ابنتى ، إن أباك بخير ، ولكن أصابه إغماء منذ الصباح ، ولا يزال الأطباء معه حتى الآن ، يقولون أن هناك شللا أصاب ساقيه و .....
ودارت الدنيا من حولى ولم أشعر بشىء بعد ذلك .

وعندما أفقت ، كانوا قد نقلوك الى المستشفى ، وأخبرونى أن زيارتك قد منعت .
وحاولت المستحيل لأذهب إليك دون فائدة .
وبعد ثلاثة أيام ، اصطحبنى محسون إلى المستشفى وأنا أشعر أن قلبى يرتجف لهفة عليك .

ووقفت على باب غرفتك أنظر إليك .
كنت ترقد فى سريرك مستسلما ، وبدا وجهك شاحبا وعيناك نصف مغمضة .
كان يبدو وكأنك لاتعى ما يدور من حولك تماما .
ولكن عندما رأيتنى ، نظرت إلى فى حب ، وابتسمت لى فى ضعف شديد ، إبتسامة هزيلة اهتز لها قلبى ...
ولم أدر كيف اندفعت إليك كالمجنونة أقبل وجهك وقدميك ويديك ، ازداد جنونى ، وازدادت لهفتى .
وعدت إلى البيت ، وحيدة . حزينة ، ونظرتك لا تفارقنى .

آه يا أبى !!.. لماذا أحييت الأمل مرة أخرى ، لماذا جعلتنى أحس بكل هذا الحب فى عينيك ؟ لماذا جعلتنى أشعر أنك لولا ضعفك لاحتضنتنى وضممتنى إلى صدرك ..؟.
وعشت أنتظر عودتك الى البيت ، وأعد الأيام والساعات والأمل يداعب أحلامى .
وعدت يا أبى وعاد البيت يضج مرة أخرى بالرجال والزائرين والأصدقاء ، لم

يكن لى مكان بينهم .

يا إلهى ... لكم كرهت هؤلاء الرجال ، لكم كرهت هؤلاء الأصدقاء وهؤلاء الزائرين .

ومرت الأيام ، ومرت الشهور وبالتدريج خف الضجيج ، وخف الزوار ، وابتعد الأصدقاء ، منهم من نسى ومنهم من تناسى .

وعدت أبحث عن هذه النظرة فى عينيك .... فلم أجدها .

كنت أجلس أمامك طوال النهار على أن ألمح تلك الابتسامة على شفتيك مرة أخرى دون فائدة .

كان وجهك حزينا ... ونظراتك حزينة ... وكلماتك حزينه...وحاولت أن أخفف عنك ، فلم أستطع . حاولت أن أقنعك بالعودة إلى الحياة مرة أُخرى .... إن الشلل قد أصاب إحدى ساقيك ولازال يمكنك السير بشىء من المساعدة ، أو باستعمال عكاز وصفه الطبيب فباءت محاولاتى بالفشل ، ولم تقتنع ، فضلت الانزواء والموت البطىء على أن يراك أحد ضعيفا أو مريضا ، أو حتى لا ترى نظرة شفقة فى عيون الناس .

..... يا لكبريائك يا أبى .

ومرت الأيام متشابهة بطيئة ، ووجهك يزداد حزنا ، وتزداد انطواء .

وفى يوم طلب محسون إجازة ليسافر إلى حائل فقد تلقى رسالة من زوجة ولده تخبره فيها أن حالته الصحية قد تدهورت ولا بد من حضوره .

وخلا البيت إلا منى ومنك ......

أصبحت أعد لك الطعام كل يوم ، وأجلس أمامك على الأرض لنأكل سويا .

كنت أساعدك فى سيرك .. وفى حمامك ، وأساعدك فى ارتداء ملابسك .

كنت سعيدة يا أبى ، لم أكن أطلب أكثر من ذلك ، يكفى أنك كنت تتكىء على كتفى فى سيرك ، وكنت تنادينى كثيرا عندما تحتاج إلى شىء ، يكفينى أننى أصبحت

قريبة منك ، يكفينى أننى أصبحت ولو خادمة فى حياتك .

وتمنيت ألا يعود محسون مرة أخرى ......

وبينما كنت أجلس يوما فى ركن الغرفة أقرأ كتابا ، لاحظت أنك كنت تطيل النظر إلىّ ، ولكنى لم أعط الأمر أية أهمية ، وظننت أنك ربما كنت ستطلب شيئا ما .

وسمعتك بعد قليل تنادينى :

– إسلام ... ماذا تفعلين يا ابنتى .؟

– أراجع دروسى يا أبى .

– ولماذا تجلسين بعيدا هكذا .... إقتربى هنا .... ألا تحبين الجلوس بجانب أبيك ؟

ولم أصدق نفسى ....

وقمت على الفور ، وجلست أمامك ، وقلبى يخفق بعنف وقد جف حلقى ، وأحسست ببرودة فى أوصالى ، ولكنى حاولت أن أخفى انفعالى .

وأخذت تتأملنى قليلا .....

– لقد أصبحت شابة يا إسلام ... لقد أصبحت لى ابنة شابة .

وضممتنى فى رقة بالغة وقبلتنى فى وجنتى .

وذهلت .....

أخذت أنظر اليك غير مصدقة ، وأنفاسى تتلاحق .

وعدت وضممتنى مرة أخرى ، وأخذت تمسح على شعرى وتربت على كتفى .

ولم أحتمل أكثر من ذلك .... فانهمرت دموعى وأخذت أبكى كطفلة صغيرة .

– لا تبكى يا ابنتى ... إننى بخير ، لا داعى لكل هذا البكاء ... لم أكن أعرف أنك تحبيننى الى هذه الدرجه ... كم أنت رقيقة يا ابنتى !

ولم تفهم يا أبى ... لم تفهم إلى اليوم ، لماذا ظللت أبكى لساعات طويلة ، وكلما ازددت رقة ، انهمرت دموعى وازداد بكائى ، حتى لم أعد أستطيع التحكم فى نفسى .

ومن يومها ، أصبح لى أب حقيقى ... يحبنى ، ويشتاق لرؤيتى ويسأل عنى ، ويأنس لوجودى ، ويضمنى أحيانا الى صدره .

لم أعد أفترق عنك ، أصبحـت لا آكل إلا معـك ، ولا أجلس إلا معـك ، ولا أفارق غرفتك إلا للضرورة ، أو فى المساء عندما أذهب لفراشى .

كنت أخاف أن ابتعد عنك قليلا ، فتنسانى مرة أخرى ......

وكثيرا ماساءلت نفسى عن سبب هذا التغيير الذى حدث لك ، كيف تغيرت بهذا الشكل يا أبى ، ولماذا أخفيت محبتك طوال هذه السنين ، وكيف ظهرت الآن ... كيف ؟! ولكنى لم أستطع أن أجد الجواب أبدا .

حتى كان ذلك اليوم ....

كنت قد لاحظت شرودك من أول النهار ، كان واضحا أن هناك شىء ما فى الأمر ... شىء يزعجك ويقلق راحتك لدرجة جعلتك مكتئبا ساهما .

وفى النهاية سألتنى ..:

ـ إسلام ... كم عمرك الآن يا ابنتى ... خمسة عشر ...؟

تقريبا يا أبى ... ... ولم السؤال ؟

فصمت قليلا ثم قلت مترددا :

ـ لقد حضر اليوم لزيارتنا هشام ابن عمك الأسعد ، وقد تقدم ليطلب يدك منى .

وأحسست أن قلبى توقف .....

ـ ستزوجنى يا أبى .... ستزوجنى وتبعدنى عنك مرة أخرى ، هكذا سريعا ...؟

ولكنك أكملت :

ـ وقد قلت له إنك مازلت صغيرة وأن عليه أن ينتظر سنوات أخرى ، ولكنـى وجدت أنه من الأفضل أن أسألك لأعرف رأيك .

وأحسست بسعادة غامرة ....

ـ آه يا أبى ... لقد أفزعتنى ، ليس لدى غير رد واحد ، وهو أننى لست على استعداد أبدا لأن أبتعد عنك ، لا أريد أن أتزوج يا أبى ، لا أريد أبدا .

شعرت بك تتنهد فى ارتياح ....

ـ يا بنيتى الحبيبه ... وأنا أيضا لست على استعداد لأن تبتعدى عنى . صدقينى ، لقد ملأت حياتى ، وشعرت بالخوف عندما أحسست أنك ستبتعدين عنـى ، لقـد

أصبح أبوك عجوزا مريضا لا يستطيع الاستغناء عنك يا إسلام .

ودوت الكلمة فى أذنى ......

عجوزا مريضا ... عجوزا مريضا لا يستطيع الاستغناء عنى .... هكذا إذاً يا أبى .... الآن عرفت السبب فى التغير الذى حدث لك .

وأصابتنى الفكرة بانقباض فى صدرى ، وحاولت التهرب منها ... ولكن ما الفائدة ، إنها الحقيقة .

نعم إنها الحقيقة يا أبى .....

لقد أحببتنى عندما أصبحت فى حاجة إلى حبى ، وتقربت منى عندما أصبحت فى حاجة إلى قربى منك ، وأعطيتنى لتأخذ منى بقدر ما أعطيت .

لست أدرى لماذا أفكر الآن فى كل هذا ، صدقنى ليس هناك شىء كان يمكن أن يؤثر فى حبى لك ، وتعلقى بك ، فحاجتى اليك كانت أكبر بكثير من حاجتك الى ، ولكنك لم تكن تدرى ....

وتنهدت الفتاة وقامت من مكانها .

ـ أبى ... سوف أصعد الى غرفتى ، هل أنت فى حاجة الى شىء أحضره لك .

ـ شكرا لك . ولكن ألم يزل الوقت مبكرا ، هل أنت متعبه ...؟

ـ قليلا وأشعر برغبة فى النوم ، كما أنى قد وعدت بعض صديقاتى أن نذهب كل يوم إلى المدرسة فى وقت مبكر ، ونستذكر سويا هناك ، فهذا أفضل لنا .

ـ كما تشائين ... تصبحين على خير يا ابنتى .

ـ تصبح على خير يا أبى .

وانطلقت إلى غرفتها .

الفصل الثالث

ليس هناك إنسان
في هذا العالم،
مهما فعل، ومهما حاول،
ومهما بلغ من سلطان،
يستطيع أن يغير قدره.
لهذا ليس علينا
إلا الامتثال،
الامتثال لحكم الله...
ولأمر الله...
ولمشيئة
الله...



لم تكن الساعة قد بلغت السادسة صباحا ، وإسلام منطلقة فى طريقها إلى المدرسة .

أخذت تسرع فى سيرها من شدة لهفتها ، كانت تشعر بسعادة غريبة ، سعادة غامرة وشوق لم تعرفه من قبل ، أحست أن قلبها يرقص فى صدرها ، ويكاد يخرج من بين ضلوعها ، ويسبقها إلى هناك ، الى الحبيبة الغالية ، فيحتضنها ويقبّلها ويحتويها .

آه يا أمى ... لقد حملتنى بداخلك تسعة أشهر ، وليتنى أستطيع أن أحملك داخل قلبى إلى الأبد !

وعرجت إسلام الى طريق جانبية على يمين الشارع الرئيسى ، كانت المدرسة تقع فى نهايته .

وما أن اقتربت قليلا حتى لمحتها .

وشهقت الفتاة من شدة الفرح ....

ولم تتمالك نفسها ، فأخذت تجرى ، وتجرى ، وتجرى ، حتى وصلت إليها ، فأزاحت خمارها عن وجهها ، وألقت بنفسها بين يديها ، فاحتضنتها المرأة بقوة ، وأخذت تقبّلها فى لهفة وشوق ، وقد امتلأت عيناها بالدموع .

ومضت فترة من الوقت قبل أن تتكلم الفتاة .

ـ كيف حالك يا أمى ... لقد اشتقت إليك كثيرا ... ليتك ذهبت معى البارحة ، لقد ظللت أحلم بك طوال الليل .

ولم ترد المرأة ، وظلت تنظر إلى الفتاة فى هيام شديد .

ـ لقد نسيت أن أسألك بالأمس أين ستبيتين ليلتك ، أخبرينى يا أمى بالله عليك ، أين قضيت ليلتك البارحة ؟

ـ فى الهرم .

ـ هرم ... أى هرم هذا يا أمى ؟ !

ـ هرم ... هرم شريف .

وضحكت الفتاة من أعماقها ....

ـ تقصدين الحرم الشريف ، آه يا أمى كم أحب أن أسمع طريقتك هذه فى الحديث .

ونظرت المرأة إلى الأرض وقد احمر وجهها خجلا .

وعادت إسلام تسأل فى صوت حزين ... :

ـ ولكن كيف ... كيف يا أمى تبيتين فى الحرم ، ولك بيت متسع من حقك ان تعيشى فيه ؟ ؟

ـ إن بيت الله أفضل من أى بيت آخر .

ـ أعرف هذا يا أمى ولكن ...

ـ لا تقولى شيئا يا ابنتى ... إن الطمأنينة التى أحسست بها البارحة لم أشعر بها طوال حياتى ، وعندما جلست أنظر إلى بيت الله ، أحسست بسكينة غريبة وهدوء يملأ قلبى . ونسيت كل ما حولى ، نسيت كل شىء ، وكل ما حدث ، ولم أعد أفكر فى شىء حتى أنت يا إبنتى ....

... لا تتعجبى ... لقد قضيت خمسة عشر عاما لا أفكر الا فيك ، ولا أعيش إلا من أجلك ، وصورتك لا تفارق خيالى ، كنت أفكر فيك وأنا أسير ، أفكر فيك وأنا أتكلم ، وأنا آكل ، وأنا أتنفس ، حتى فى نومى ، كنت أفكر فيك وأنا نائمة .

... وعندما فارقتنى بالأمس ، أحسست أن روحى قد فارقت جسدى ، وأن قلبى يحترق لهفة عليك .

وسرت فى طريقى الى الحرم الشريف ، وسارت معى هواجسى وأفكارى . كنت أفكر فيك وفى نفسى وفى مصيرى ، أفكر فى أبيك وفى أبى وأمى وفى جدتى العجوز ، وفى الأيام التى مرت ، وفى الأيام القادمة ، أفكر فى هذا كله مرة واحدة ، حتى كاد رأسى أن ينفجر .

.. وفجأة ... أحسست بسلام غريب فى داخلى ، سلام لم أعرفه من قبل ، وتطلعت من حولى فاذا أنا أمام بيت الله .

وصمتت المرأة قليلا ، وجففت دموعها .

ـ آه يا إسلام ، ماذا أقول لك . لقد جلست أمام البيت وعيناى معلقتان بأستاره ، وقلبى خاشع حتى أنى لم أكن أدرى بما حولى . لم أكن أشعر بشىء أو أفكر فى أى شىء ... سلام غريب ... سكينة لم أعهدها ، وطمأنينة لم أعرفها فى حياتى .

.. ونسيت كل شىء يا ابنتى ، لم أعد أفكر إلا فى الخالق العظيم ... خالقى وخالقك ... رب البيت ... رب الكعبة ... رب الحبيب عليه الصلاة والسلام .

وبكت المرأة فى خشوع ... وبكت إسلام .

ـ آه يا ابنتى ، لم أنم فى حياتى نوما هادئا كما نمت بالأمس ، ورزقنى الله بالطعام ، ورزقنى بالشراب ، وصليت كما لم أصل طيلة عمرى .

وارتمت الفتاة فى أحضانها ....

ـ كم أنت رائعة يا أمى ... كم أحبك !!

وأخذت المرأة تمسح على شعرها فى حنان ... ثم سألتها :

ـ إسلام ... هل لاحظ أبوك شيئا ، هل أخبرته عن شيء .؟

ـ بالطبع لا يا أمى ... لقد وعدتك . ولكن أخبرينى قبل أن أنسى ، هل كانت أمك هندية ..؟

وابتسمت المرأة فى خجل وقالت :

ـ وكيف عرفت هذا ، لابد وأنك قد لاحظت لون بشرتى السمراء . نعم لقد كانت أمى هندية ، كانت جميلة جدا وكان لها عينان ساحرتان مثل عينيك يا إسلام .

.. لقد توفيت وأنا طفلة صغيرة ، ولكنى لازلت أذكرها إلى الآن .

وشردت الفتاة قليلا ، فقد تذكرت حديث أبيها البارحة .

ـ حدثينى عنها يا أمى ، وعن أبيك . حدثينى عن نفسك ، كيف قابلت أبى ، وماذا فعلت خلال السنين الماضية .؟

ـ أخبرينى أنت أولا ... أريد أن أعرف كل شيء عنك .

ـ صدقينى يا أمى ، ليس عندى أكثر مما قلته لك البارحه ، لقد مضت أيامى متشابهة فى طفولتى وصباى عشت فى وحدة قاسية ، فى بيت متسع ، لم يكن ينقصنى أى شيء سوى الحب والحنان .

.. حاولت كثيرا أن أقترب من أبى ، حاولت كثيرا أن أجد لديه ما أفتقده دون فائدة .

.. ولكنه تغير كثيرا فى السنوات الأخيرة ... تغير كثيرا خصوصا بعد أن أصابه الشلل .

وصرخت المرأة فى فزع ، وضربت صدرها بكفيها .

ـ أعذرينى يا أمى ... لم أقصد ، لقد نسيت أنك لا تعرفين .

وظلت المرأة تحملق فيها وقد أخذتها المفاجأة ، ثم قالت بصوت مرتعش وهى تحاول أن تحبس دموعها :

ـ كيف ... ومتى حدث هذا ...؟

ـ منذ حوالى أربع سنوات . لقد أصاب الشلل ساقه اليسرى ولكنه لايـزال

يستطيع السير باستعمال عكاز أو بشيء من المساعدة . لا تنزعجي يا أمي إنه بخير ، أقسم لك أنه بخير .

وظلت المرأة صامتة مأخوذه ....

ولم تعرف اسلام ماذا تقول لها ، فصمتت هي الأخرى .

ـ إسلام ... كيف حالك . كيف حالك يا أم إسلام ؟

والتفتت الفتاة خلفها ....

كانت نوال ... مديرة المدرسة .

ـ اصحبي أمك إلى الداخل يا إسلام ، ليس عندى أى مانع أن تجلسا كل يوم فى غرفتى ، إنها متسعة كما ترين .. أما جلوسكما هكذا فى الشارع أمام باب المدرسة ، أرى أنه لا يليق أبدا .

وقبل أن ترد الفتاة ... كانت قد استدارت فى طريقها إلى داخل المدرسة .

فأخذت تتأملها قليلا ثم قالت :

ـ شيء عجيب ...!!

ـ ما هو يا ابنتى ...؟

ـ أننى أعجب لأمرها يا أمى ، أعجب كثيرا لأمر أبله نوال المديرة . إن جميع الطالبات ، وجميع المدرسات ، بل وجميع الناس يعرفون أنها قاسية القلب ، عديمة الاحساس لا تعرف الرحمة .. ولكن انظرى الى تصرفها معنا بالأمس ، وانظرى إلى تصرفها الآن ، ماذا يمكن أن تقولى عنها ؟ اننى أعجب لها يا أمى ... أعجب لها !

ـ لا يا ابنتى ... لا تعجبى لها ، إن الحياة قد علمتنى الكثير ، إننى أفهمها جيدا ، إن قسوتها هذه ما هى إلا ستار تحاول أن تخفى به قلبا كبيرا فى داخلها ، يحمل كثيرا من المشاعر الرقيقة . هيا يا ابنتى إلى الداخل ... فيبدو أن رأيها هو الصواب .

وهكذا اعتادت إسلام أن تحضر فى كل يوم الى المدرسة مبكرا ، فتجلس مع أمها فى غرفة المديره تتحدثان ، وتتهامسان ، وتتضاحكان . وعندما تبدأ الدراسة تتركها إلى

كتبها لتعود اليها مرّة أخرى أثناء الفسحة أو بين الحصص .

وتغيرت أحوال الفتاة ، أصبحت أكثر انطلاقا ، كثيرة الضحك ، يغلب عليها المرح .

لقد قتل الحرمان فيها إشراقة الصبا ... ولكن حنان أمها الدافق أعاد اليها الحياة مرة أخرى .

وفى يوم سألت الفتاة أمها ... :

ـ أمى إنك الى الآن لم تحدثينى عن حياتك ، أريد أن أسمع كل شىء عنك ، ألا تحبين أن تعرف ابنتك عنك كل شىء ؟

ـ على العكس تماما يا ابنتى ، اننى أجد لذة كبيرة فى التحدث إليك عن نفسى وعن ذكرياتى . ولكنى لا أجده بالحديث السار . ان حياتى مليئة بالأحزان والآلام ، ولا أحب أن أراك حزينة أو متألمة يا إسلام .

ـ لا تخافى يا أمى ... لست بطفلة صغيرة . صدقينى .. سوف أشعر بسعادة أكبر كلما اقتربت منك أكثر ، وعرفت عنك أكثر . هيا يا أمى ... هيا ...

ـ كما تشائين يا ابنتى ... فليكن ما تريدين .

عندما خلق الله الأرض يا ابنتى ، خلق الناس ، وخلق معهم أقدارهم .

كتب لكل انسان قبل أن يولد ... نصيبه من السعادة ، ونصيبه من الشقاء .

إنها الأقدار .... ولا مهرب منها .

ليس هناك إنسان فى هذا العالم ، مهما فعل ، ومهما حاول ، ومهما بلغ من سلطان ، يستطيع أن يغير قدره .

لهذا ... ليس علينا الا الامتثال ، الامتثال لحكم الله ، ولأمر الله ، ولمشيئة الله .

علينا أن نؤمن بأقدارنا ... خيرها وشرها ، ونتعلم أن نصبر عليها .. نعم ... يجب علينا فى هذه الحياة أن نتعلم الصبر ، ونطلب من الله دائما أن يلهمنا إياه .

.. الصبر يا ابنتى ... الصبر ... إنه الدواء الوحيد لكل داء ليس له دواء .

أخبرتك أننى قد جئت من جزيرة جاوة . لقد ولدت فيها وعشت فيها طفولتى وشبابى ، ولم أخرج منها إلا هذه المرة .

إن جاوة يا ابنتى ... قطعة من جنة الله على الأرض .

إن الطبيعة هناك أروع من أن توصف .

كثيرا ما كنت أجلس فوق ربوة عاليه ، أتأمل فى صنع الله ، أتأمل فى هذا السحر وهذا الابداع ، فلا أملّ من جلستى أبدا .. جوها ربيع دائم ، فلا صيف ولا شتاء ، خصوصا فى الجبال والمرتفعات ، هذا بفضل الأمطار اليومية طوال العام ، فلا يكاد يوم يخلو من هتان يرطب الجو ويحيى الأرض .

.. وفى قرية صغيرة تقع على ساحل البحر ، لا تبعد كثيرا عن المدينة الرئيسية ، ولدت فى أسرة تتكون من رجل وزوجته وأمه العجوز ، فى بيت خشبى متسع ، بنى من خشب البامبو مثل باقى البيوت فى القرية ، ويتكون من طابق واحد ، وله حديقة صغيرة وسقف منحدرة ويقع فوق ربوة خضراء .

.. كان بيتنا من أكبر وأجمل بيوت القرية ، فقد كان أبى فى الماضى رجلا غنيا ،

من كبار تجار الجزيرة ، وكان يملك سفينتين صغيرتين ورثهما عن أبيه ، يستخدمهما فى نقل البضائع بين الجزر المختلفة القريبة منها والبعيدة .

وكثيرا ما كان يغيب عن القرية أياما عديدة قد تصل إلى عدة أسابيع ، ويترك تصريف شؤونه فى يد صديق له يدعى ألنتو كان قد تعرف عليه فى جزيرة سومطره وعرض عليه أن يعمل فى خدمته ، ويساعده فى تجارته ، ولم يلبث أن أصبح مع الأيام ساعده الأيمن .

وفى أثناء إحدى رحلاته إلى جنوب الهند تعرف على فتاة هندية رائعة الجمال ، هام بها حبا . ولكن أباها لم يرض أن يزوجها له حتى أعطاه أبى إحدى سفنه كمهر لها .

أحب أبى زوجته كما قلت حبا جنونيا ، ولم يعد يستطيع الابتعاد عنها ، فكره البحر ، وكره التجارة ،

ولم يلبث أن باع السفينة الأخرى واشترى أرضا ملاصقة لبيتنا بنى فوقها مقهى كبيرا ، وكل إدارته لصديقه ألنتو .

كان سعيدا بزوجته ، متيما فى حبها إلى أقصى الحدود ، ولم يكن يذهب إلى المقهى إلا لفترات قصيرة ، ثم يعود سريعا إلى البيت ، فيجلس أمامها يناجيها ويتحدث إليها ولا يدع وسيلة إلا لجأ اليها ليسعدها ويحوز رضاها حتى أسماه الناس ..... عاشق برفين .

لم يكن أبى بالرجل الوسيم على الاطلاق ، كان قصير القامة يميل إلى البدانه ، وكانت له رأس كبيرة وأنف أفطس وعينان صغيرتان ، ولكن كان له قلب كبير .

حقيقة أنه كان قبل أن يتزوج أمى عصبى المزاج ، شرس الطباع الى حد ما ، ولكنه تحول بعد ذلك إلى حمل وديع .

لهذا أحبته أمى ، أحبته وأخلصت له ولبيته .

وفى وسط هذا الجو المفعم بالمحبة ... قضيت سنوات عمرى الأولى .

وما أن بلغت الخامسة من عمرى حتى أرسلنى أبى الى المدرسة فى المدينة ، لتعلم

القرآن الكريم وأصول الدين ، كنت أذهب اليها فى عربة صغيرة ، يملكها أبى ، يجرها حصان أبيض .

وأحبتنى أمى وأحبنى أبى كل الحب ..

كان رقيقا فى معاملتى ، وكثيرا ما كان يحملنى بين يديه ويقول لى :

ـ تيا ... إنك طفلة ذكية ، وأنا أحبك كثيرا ، وسوف تصبحين يوما عالمة كبيرة . وعندها سوف أبنى لك مدرسة خاصة تحمل اسمك فيأتى الناس من جميع القرى المجاورة ليتعلموا أصول الدين على يديك .

وقاطعتها إسلام :

ـ هل اسمك تيا يا أمى ؟... ياله من اسم جميل ! وابتسمت المرأة وقالت : ان اسمى فاطمة الزهراء وهو اسم إسلامى كان أبى يفتخر به كثيرا . ولكن الجميع اعتادوا أن ينادونى تيا . لا أدرى ربما كنوع من التدليل منذ أن كنت طفلة صغيرة ، أو هو اختصار للاسم الاصلى وتسهيلا للنطق .

قلت لك أن أمى كانت على درجة كبيرة من الجمال ، ولكنها لم تحاول أبدا أن تثير غيرة أبى ، او تلفت الأنظار اليها . كانت لا تخرج إلا وهى مرتدية ثيابا فضفاضة ، وتحرص على أن تغطى شعرها ورأسها وكتفيها ، وربما جزءً من وجهها بوشاح كبير ، ولا تضع إلا القليل من المساحيق .

ولكن فى البيت ... كان الوضع يختلف تماما .

كانت تضع المساحيق على وجهها فتظهر جمال عينيها ، وتترك شعرها الغزير متموجا حول وجهها ، وفوق كتفيها ، وترتدى ثيابا هندية ضيقة تكشف عن ذراعيها وجزء من جسدها ، كانت تبدو فيها فاتنة .

فاذا حضر أبى استقبلته هاشة ، مبتسمه ، مرحبة مما زاد من حبه لها وتعلقه بها .

وغرنا صفاء الدهر .... وخدعتنا ابتسامة الدنيا ، فنسينا أن السعادة لا تدوم ! لازلت أذكر هذا اليوم الكئيب الى الآن .

خرج أبى يومها لقضاء بعض الأعمال ، ويبدو أنه نسى أن يغلق خلفه الباب الخارجى للبيت جيدا .

كانت أمى فى غرفتها تجلس أمام مرآة صغيرة ، تتزين وتضع المساحيق على وجهها ، وجدتى العجوز كالعادة تقبع فى غرفتها ساكنة ، وكأنها لاتدرى عن شيء مما يدور حولها .

ووقفت بجانب أمى أحاول أن أفعل مثلها ، وأخذت أعبث بالزجاجات الصغيرة والعلب الملونة ، ولم تلبث أمى أن نهرتنى :

ـ تيا ... إذهبى والعبى بعيدا من هنا ، لن تمر لحظات إلا ويكون أبوك قد حضر ، وسوف أشكو له منك ، وأخبره بما تفعلين .

وذهبت مرغمة ، وجلست فى ركن بمدخل البيت كنت أضع فيه لعبا كثيرة أشتراها لى أبى من المدينة ، وعروسة من قماش صنعتها لى أمى ، ونسيت نفسى أمامها .

وبينما أنا منهمكة فى اللعب ، وقع بصرى على باب المدخل وصرخت من شدة الفزع ...

كان الباب مفتوحا على مصراعيه ، وقد وقف ألنتو بجسده الضخم يحملق فى داخل البيت تجاه حجرة أمى ، وقد جحظت عيناه ، وفغر فمه ، وسال لعابه ، وبدا مرعبا إلى أقصى درجة .

وأسرعت أمى لترى ما حدث ، وما أن رأت الرجل حتى التقطت ملاءة صغيرة أخفت بها رأسها وكتفيها ، ثم صاحت فيه :

ـ ألنتو ... يا لك من كلب قذر ، لماذا أتيت الى هنا ، ألا تعلم أن سيدك بالخارج ؟ هيا اذهب ، يا لك من نذل وقح .

ولكن الرجل لم يرد ، واستمر يحملق فيها ، ثم تقدم خطوات إلى داخل البيت .

وأخذت أصرخ فى فزع شديد ، وجدتى تصيح من الداخل :

ـ ماذا هناك .؟. أخبرونى ماذا حدث ؟... أخبرونى ؟... إننى لم أمت بعد ... اننى مازلت على قيد الحياة ، هل نسيتم هذا ، أخبرونى بما يحدث هناك وعادت أمى تصيح فى الرجل :

ـ ألنتو .... لآخر مرة أقول لك أخرج من هنا ، إن سيدك لن يسكت على هذا أبدا .

ولكن الرجل استمر يتقدم نحوها بخطوات بطيئة .

وفجأة ... حملت أمى إناء زجاجيا ثقيلا من جانبها ، وقذفته فى وجهه بكل قوتها .

وأفاق إلى نفسه ، وصرخ من شدة الألم ، وأخذ الدم يتدفق بغزارة من رأسه وجبهته وأخذ يسيل منه على ثوبه وعلى الأرض ، ولم تمض ثوان الا وكان وجهه قد امتلأ بالدم ، ... فاندفع الى الخارج يجرى كالمجنون .

وأغلقت أمى الباب من خلفه وهى لا تصدق نفسها .

وأسرعت الى غرفة جدتى ، وارتمت فى حجرها ، وأخذت تبكى وتروى لها ما حدث .

وكانت جدتى تنصت اليها فى اهتمام شديد ، وتربت على كتفها بحنان بالغ ، ولم تتكلم الا بعد أن هدأت أمى تماما وكفت عن البكاء .

وقالت جدتى :

ـ برفين ... لابد وأن تخبرى سراج الدين عندما يحضر بكل شىء .

لابد أن تروى له كل ما حدث بالتفصيل ، يجب أن يعرف كل شىء عن هذا الخنزير الجبان .

ولكن أمى لم توافقها على هذا الرأى وقالت :

ـ لا ... لا أستطيع ، لن أخبره بأى شىء ، سوف يغضب ويتألم كثيرا ، ثم لا تنسى أن ألنتو صديقه ، وهو يعتمد عليه فى إدارة شئونه ، وسوف يكون من الصعب عليه الاستغناء عنه .

وبالفعل لم تخبره أمى بما حدث ... وليتها أخبرته .

لو أنها سمعت كلام جدتى وقتها ، لو أنها أخبرت أبى بكل شىء ، لجنبّتنا الكثير من المصائب التى لاحقتنا بعد ذلك .

الفصل الرابع

إنه يحبني كثيرًا...
كم أنا سعيدة يا تيما !!
لو كنت أعرف أن مرضي
سيعيد إليه رشده،
لطلبت من الله
أن يصيبني
بالحمى
منذ زمن
بعيد.



ظلت أمى بعد هذا الحادث ، ولفترة طويلة ، لاتخرج من باب البيت إلا للضرورة القصوى . وعندما يخرج أبى ، كانت لاتطمئن إلا عندما تتأكد بنفسها أن باب البيت ، وجميع النوافذ مغلقة بإحكام .

ومرت الأيام .. ومرت الشهور ، وظنت أمى أن الرجل قد تاب عن فعلته .

ولكن جدتى كانت تلح عليها دائما أن تخبر أبى بما حدث ، وسمعتها مرة تقول لأمى :

- لابد وأن يعرف سراج الدين بكل شيء حتى يأخذ حذره منه ، إن ألنتو خائن ، وقد يحاول أن يغدر به مرة أخرى ، أو يخدعه أو يدبر له مكيدة ، وسوف يكون ذلك سهلا بالنسبة له ، أعرف أنه سيفعل ، أعرف ذلك ، إن قلبى يحدثنى ، سيأتى يوم تعرفين أنى كنت على حق . ولكن أمى لم تقتنع وظلت على رأيها .

بعد حوالى ثلاثة أشهر ، تعرض أبى لحادث مؤلم كاد أن يودى بحياته .

كان قد خرج فى الصباح الباكر قاصدا المدينة ليقضى فيها بعض أموره . وفى منتصف الطريق لاحظ أن الحصان بدأ يسرع بطريقة غير طبيعية أثارت انتباهه ، فحاول تهدئته فلم يستطع ، وزاد الحصان من سرعته ، ثم بدا هائجا وخرج عن الطريق ، وأخذ يجرى بطريقة ملتوية ، أفقدت أبى السيطرة على العربه تماما ، ولم تلبث أن انزلقت إلى جانب الجبل فى هوة عميقة ، ولكن أبى قفز منها فى اللحظة الأخيرة ، فارتطم بصخرة ناتئة ، وأصيب بكسر فى أسفل الظهر .

ونقل أبى إلى المستشفى فى حالة سيئة ، ووضعه الأطباء فى جبيرة لم أر فى حياتى أكبر منها .

وامتلأ البيت بالحزن والبكاء ، وامتلأ كذلك بالمحققين ورجال الشرطة .

وسمعتهم يقولون أن الحصان قد حقن بمادة الستركنين السامة وأن الذى فعل هذا كان يقصد التخلص من أبى .

وأدركت أمى ، وأدركت جدتى ، وأدركت أنا أن ألنتو هو الفاعل .

ومع هذا لم تتكلم أمى وظلت على صمتها .

وحاولت جدتى أن تقنعها بكل الطرق ، دون فائدة .

وفى يوم ، حضر بعض رجال الشرطة للمرة العاشرة إلى المنزل لأخذ أقوال أمى . وفجأة سمعت صوت جدتى تصيح من الداخل :

ـ أيها الشرطى .. أيها الرجل البدين ، تعال إلى هنا لدى ما أقوله لك . أيها الشرطى .. ألا تسمعنى ، هل أصبت بالصمم ؟ تعال الى هنا أيها الفتى الأبله ..

كان لجدتى صوت جهورى ، عال ومزعج الى حد بعيد ، وكنت أعجب كيف يخرج هذا الصوت من هذه المخلوقة الضعيفة العجوز .

وقام الشرطى إليها وهو يحاول أن يكتم الضحك ، وقال لها فى شيء من الجد المصطنع :

ـ كيف تتحدثين إلى رجال الحكومة هكذا يا امرأه .. ؟! ولكن جدتى لم تخف منه ونظرت إليه فى تحد ، وقالت له :

ـ وكيف لاتلبى نداء امرأة عجوز فى سن أمك سريعا ، وتتركها تناديك ألف مرة قبل أن تجيب .. ؟ والآن كف عن الثرثرة وأجلس هنا فسوف أخبرك عن الرجل الذى حقن الحصان بالسم وحاول قتل ولدى ، إنه ألنتو ، هذا الخنزير الذى يدير المقهى . لقد رأيته قبل الحادث بيوم واحد وهو يحاول أن يسرق النقود من خزانة ولدى ، ولم يكن هناك أحد غيرى فى البيت . وعندما هددته بإخبار سراج الدين ، قال لى أنه سوف يقتله ويقتلنى سويا . ولكنى امرأة مسلمة ولا أخاف من أحد إلا

من الله وحده ، ولهذا أخبرتك حتى ينال هذا الخائن جزاءه .

وقبض على ألنتو ووضع فى السجن .. وأغلق المقهى .

ولكن عندما علم أبى بما حدث ، غضب وثار ثورة عارمة ، وقال للمحققين أن جدتى امرأة عجوز لاتعى ماتقول ، وأن ألنتو صديق مخلص ولايمكن أن يكون هو الفاعل ، وأنه لو أراد السرقة لكان بإمكانه أن يسرق من خزنة المقهى ، فليس هناك اذاً مايدعوه لدخول البيت .

وأخلى سبيل ألنتو مرة أخرى .. وعاد الى المقهى .

وبعد حوالى أسبوعين نقل أبى الى البيت ، وأمره الطبيب أن يبقى فى الجبيرة أربعة أشهر كاملة .

كان أبى لاينام الليل من شدة الألم ، ولايكف عن الأنين والشكوى ، وأمى جالسة الى جوار فراشه تحاول أن تخفف آلامه وأن تسرّى عنه دون فائدة .

وحتى بعد أن نزع الطبيب الجبيرة ، أصبح فى استطاعته السير والجلوس مرة أخرى ، ولكن الآلام المبرحه لم تفارقه .

وفى أثناء هذه الفترة ، كان يحضر الى البيت بين حين وآخر بعض أصدقاء أبى للسؤال عنه ، والاطمئنان على صحته ، ومن ضمنهم هذا الجبان ألنتو .

كان يدخل البيت منكسا رأسه ، لا يلتفت يمينا أو يسارا ، ويجلس أمام أبى فى ذلة ومسكنة ، ويتصنع الشفقة والحزن عليه .

ومع الأيام أصبح يأتى إلى البيت كثيرا ، ويطيل الجلوس مع أبى .

وذات مرة لمحته يعطى لأبى شيئا ما ملفوفا فى ورقة صغيره ، وهو يقول له :

ـ كما قلت لك .. عندما تشعر بالألم ضع قطعة صغيرة تحت لسانك ، وبعدها سيزول كل شيء . لاتخف طالما أنا بجانبك ، إنك ربيب نعمتى ، ولن أنس هذا أبدا . وفى مرة أخرى ، أحضر له زجاجة صغيرة ، وقال له أنه دواء قام بتركيبه خصيصا صاحب له يعمل صيدليا .

وأخبرت أمى بما رأيت ، فلم تعط الأمر أية أهمية . ولكنى عندما أخبرت جدتى

قالت لى :

ـ إنه سم يسقيه له ، إنها مكيدة يدبرها لأبيك ، ولكن ماذا أقول وليس هناك أحد يسمع كلمتى فى هذا البيت ؟! وكانت جدتى على حق ، ولم تعلم أمى ذلك الا بعد فوات الأوان .

ففى البداية تحسنت صحة أبى كثيرا ، وخفت آلامه ، وصار مرحا ، كثير الضحك بدرجة ملفتة .

كان يستعمل الدواء بانتظام ، وبالتدريج زادت الكمية التى يشربها ولايستطيع الاستغناء عن ألنتو .

ولم تنتبه أمى الى الأمر ، ولم تشعر بالخطر المحدق بها إلا بعد فوات الأوان ، وبعد أن كان أبى قد أصبح مدمنا للخمر .

ولم تكد تمضى سنة واحدة ، إلا وكان أبى قد تغير تماما .

أصبح يمضى أكثر وقته فى المقهى .

ولايعود إلى البيت إلا فى وقت متأخر من الليل وهو فى حالة شديدة من السكر ، يتخبط فى مشيته ، وقد تنبش شعره ، وتمزقت ملابسه واحمرت عيناه ، وأمسك بزجاجة الخمر فى يده ، وهو يصيح ويغنى بأعلى صوته .

وحاولت أمى المستحيل معه حتى يفيق إلى نفسه ويرجع إلى عقله دون فائدة ، بل على العكس زاد أبى فى سكره وزاد فى هياجه وأصبح فظا فى معاملتها .

كنت أسمعه عندما يعود إلى البيت ليلا وهو يصيح بأعلى صوته : برفين .. ايتها الهندية المتشرده ، تعالى وقاسمينى الشراب ، إنها الخمر .. الخمر .. ثم يأخذ فى الضحك بطريقة مجنونة .

وكانت أمى تبكى وتقول له :

ـ إننى أفضل الموت على أن أضع يدى عليها ، إن الله غاضب عليك يا سراج الدين ، إن الله غاضب عليك . وكان يهجم عليها أحيانا ويجذبها من شعرها ، ويضع

الزجاجة على فمها فى محاولة أن يرغمها على الشراب ، وكانت تصرخ وتقاوم بكل قوتها وتلجأ إلى غرفة جدتى ، التى كثيرا ماكانت تصيح فيه :

- سراج الدين .. هل مسّك الشيطان يا ولدى ؟ لا أدرى لماذا لا يريحنا الله منك !! ولكن لماذا أشكو وأنا المخطئه .. ؟ نعم أنا المخطئة ، لو أنى كنت قد جلست فوق صدرك وكتمت أنفاسك يوم أن ولدتك ، لوفرت على نفسى ، وعلى هذه المسكينة كل هذا العذاب .

وأصبحت لا أرى أمى إلا حزينة أو باكية . كانت لاتأكل ، ولاتنام ، ولاتتكلم إلا فى النادر . ويوما بعد يوم كانت تزداد هزالا ، وتزداد ضعفا ، وتزداد شحوبا . أصبحت لاتكاد تشعر بوجودى من شدة تعاستها ، وكان الألم يعتصر قلبى حزنا عليها .

ووجدت عند جدتى ملاذى الوحيد ، خصوصا بعد أن منعتنى أمى من الذهاب إلى المدرسة خوفا من أن يغدر بى ألنتو ، أو يرسل أحدا من أعوانه ليتربص بى فى الطريق . كنت أتحدث معها طوال الوقت ، وأقرأ لها أحيانا فى المصحف الشريف ، وكانت تحكى لى كثيرا من القصص المسلية والحكايات الغريبة ، وتعلمت منها الكثير ، وعرفت عنها الكثير . لم أكن أتصور أن جدتى حكيمة وطيبة ، ومسلية وخفيفة الظل إلى هذه الدرجة .

كانت جدتى قد أصيبت فى الماضى بمرض فى مفاصلها ، أدى إلى تشوهات فى ظهرها وساقيها . ومع الزمن ، أصبحت مقعدة لاتستطيع السير . كانت ضئيلة الحجم ، خفيفة الوزن إلى درجة كبيرة ، وكانت تشبه أبى برأسه الضخم وأنفه الأفطس ، ولكن عينيها كان لهما بريق عجيب . كانت متوقدة الذهن ، حاضرة البديهه ، ذكية إلى حد جعلنى أحبها وأعجب بها ، وآنس لوجودها .

كنت أجد الطمأنينة لديها ، فقد كان أبى يخاف منها ومن لسانها ، ولم يكن يجرؤ على دخول غرفتها إلا نادرا .

وأصبحت لا أفارقها أبدا ، وأنام معها فى فراشها وعلى وسادتهاه

وفى يوم أيقظتنى أمى فى الصباح الباكر ، وكان أبى لايزال يغط فى النوم ، وقالت لى :

ـ تيا ... قومى معى ، لدى مهمة سوف أقضيها ونعود سريعا قبل أن يستيقظ أبوك . بدت قلقة إلى حد بعيد ، ووجهها شاحب ، وكانت تسعل بشدة وذهبت معها ..

اتجهت من فورها الى المقهى ، ودخلت الغرفة التى اعتاد أن يجلس فيها ألنتو . وما أن رآها حتى نظر اليها بوقاحة ، وابتسم ابتسامة صفراء ، وقال لها :

ـ هل أفقت إلى نفسك أخيرا أيتها الهندية السمراء ؟ ونظرت إلى أمى .. كانت ترتجف من شدة الغضب والشرر يتطاير من عينيها .

ـ أيها الخنزير الجبان ، ابتعد عن سراج الدين ، إننى أحذرك .. إذا لم تبتعد عنه فسوف أخبره بأفعالك القذرة ، واذا لم يقتنع فسوف أقتلك .. هل تسمع؟سوف أقتلك يا ألنتو ..

ـ هل جئت تهددينني ، تهددين ألنتو؟ إنك لم تعرفينى بعد . وأطلق ضحكة شيطانية ، ثم دفع أمى تجاه الباب .

ـ أخرجى من هنا .. أخرجى .. سوف أجعلك تندمين . ودفعنا من باب الغرفة إلى المقهى ، وكان الخدم قد تجمعوا بالخارج .

وما أن رآهم الجبان حتى صاح فيها :

ـ إننى رجل شريف ، إننى رجل شريف ولايمكن أن أخون سيدى ، هيا اخرجى من هنا ، أخرجى ، إننى رجل شريف ..

وعدنا إلى البيت ، وأمى فى حالة سيئة للغاية . كانت ترتجف وأسنانها تصطك ، ثم أخذت تبكى بجنون . وارتمت على فراشها ، ووضعت فوقها غطاءين من الصوف ، ولكنها استمرت ترتجف ، ثم بدأت تهذى . وجلست إلى جانبها أبكى حزنا لحالها وخوفا عليها .

وبعد قليل أفاق أبى من نومه ، ورآنا على هذه الحال ، فاقترب منها ووضع يده على جبهتها ، ثم قال بصوت مضطرب :

ـ تيا .. أسرعى بإحضار قليل من الماء البارد ، إن أمك محمومة . ولعدة

ساعات ، جلس الى جانبها يبلل قطعة من القماش فى الماء ويضعها على جبهتها وكفيها .

كان قلقا عليها لدرجة أنه نسى المقهى ، ونسى ألنتو ، ونسى الخمر .. وظلت أمى فى غيبوبة حتى المساء .

وما أن أفاقت ورأت أبى بجانبها حتى ابتسمت له فى ضعف وقالت :

ـ سراج الدين .. كم أنا سعيدة .

وربت أبى على خدها فى حنان وقال لها :

ـ حمدا لله على سلامتك يابرفين ، لقد أفزعتنى أيتها الحبيبة ، سأذهب الآن لاحضار الطبيب .

ـ لاتذهب الآن ، انتظر حتى الصباح ، إن الطقس بارد اليوم .. أخاف عليك .

فابتسم لها فى رقة وقال :

ـ لاتخافى .. سأذهب وأعود سريعا.وقام أبى من فوره وارتدى ثيابه ، وخرج مسرعا .

بدت أمى سعيدة تكاد لاتصدق نفسها . وقالت لى فى صوت ضعيف متقطع :

ـ تيا .. هل تصدقين .. لقد عاد أبوك كما كان ، انه يحبنى كثيرا كم أنا سعيدة ياتيا .. لو كنت أعرف أن مرضى سيعيد إليه رشده لطلبت من الله أن يصيبنى بالحمى منذ زمن بعيد .

وبعد قليل عادت إلى النوم ، وغفوت بجانبها .

عندما استيقظت ، كان الليل قد انتصف ، وأبى لم يعد بعد ، ولم يحضر الطبيب .

وأحسست بالقلق ، وخفت أن يكون قد أصابه مكروه ، أو تعرض لحادث آخر .. وفجأة .. فتح الباب الخارجى ، ودخل أبى منه .. كان ثملا إلى أقصى درجة ، واندفع إلى غرفة أمى وهو يترنح ، وهجم عليها وانتزعها من فراشها ، وأخذ يهزها بعنف وهو يصيح :

ـ أيتها الخائنة ، أيتها الهندية المتشردة ، تدنسين شرفى بعد كل مافعلته من أجلك .. وصفعها على وجهها بقوة ..

ـ هيا .. هيا اخرجى من بيتى قبل أن أقتلك .

كانت أمى تنظر إليه كالمذهوله ، بدت كعصفور صغير ضعيف وقع بين يدى صياد لايرحم .

ـ سراج الدين .. إنك لاتفهم ، إن الحقيقة غير ذلك ، إسمعنى دقيقة واحدة ، أستحلفك بالله أن تسمعنى . وعاد وصفعها مرة أخرى ..

ـ أغلقى فمك القذر ، لقد حدثنى ألنتو بكل شىء عنك ، وشهد الخدم على صدق كلامه ، إنك خائنة .. هيا اخرجى من بيتى قبل أن أقتلك .

وأخذ يدفعها إلى باب البيت وهى تصيح .. وانكفأت تقبل قدمه ، فركلها وجذبها من شعرها على الأرض ، وفتح الباب وألقى بها بقوة إلى الطريـق ، وأغلقـه مرة أخرى . وأخذت أبكى وأصرخ من شدة الفزع ، وحاولت أن أخبره بما حدث ، ولكنه دفعنى من أمامه بقوة .

وكانت جدتى تصيح من الداخل :

ـ سراج الدين .. ياربيب الشيطان .. لقد خدعك ألنتو الجبان ، ستندم على رعونتك ، ليتنى قتلتك من زمن بعيد ورحمت هذه المسكينة .

ولكن أبى كان قد جن تماما .. لم يكن يسمع شيئا ، ودخل إلى غرفته وهـو يصيح ويهدد ويتوعد . وأسرعت الى الباب ، وفتحته ، وجذبت أمى الى الداخل .. وقبل أن يفيق أبى ، كنا قد اندفعنا إلى غرفة جدتى وأغلقنـا البـاب جيـدا من الداخل .

كانت أمى مبتلة تماما ، فقد أغرقتها الأمطار الغزيرة فى الخارج وأخذت تسعل بشدة وترتجف ، وأسنانها تصطك وارتمت على فراش جدتى ، تبكى وتهذى ..

وعاودتها الحمى أشد من ذى قبل ، ولم تلبث أن غابت عن الوعى .

وقضينا الليل بطوله بجانب فراشها .

وفى الصباح قالت لى جدتى :

ـ تيا .. اذهبى سريعا إلى جارنا سوهارتو ، وأخبريه بما حدث ، واطلبى منه أن يحضر طبيبا لأمك ..

ستموت المسكينه اذا بقيت على هذه الحال .

وانطلقت من فورى .....

وللحق .. كان الرجل شهما ، بمجرد أن سمع ماحدث ، أرسل زوجته معى الى البيت لتبقى بجانب أمى ، وذهب هو لإحضار الطبيب .

ولم تكد تمضى ساعة واحدة ، إلا وكان قد عاد ومعه الطبيب وأدخله فى لحظتها ليفحص أمى .

وما كاد ينتهى من فحصها حتى كان أبى قد استيقظ من النوم ، وخرج من غرفته يستطلع الأمر . وما أن رأى الطبيب حتى اندفع اليه وصاح فيه :

ـ أخبرنى بما يحدث فى هذا البيت ، أم سأظل هكذا دائما آخر من يعلم ؟!

ولكن الطبيب نظر اليه فى هدوء شديد ، ثم خلع نظارته وقال له فى صوت خافت :

ـ إن زوجتك مريضة للغاية ، إنها مصابة بالتهاب رئوى حاد ، وحالتها غير مطمئنة بالمرة ، اننى لا أستطيع حتى نقلها إلى المستشفى . على كل حال يجب العناية بها ، وإعطاؤها الدواء بانتظام ، وسأحاول أن أعود فى المساء لرؤيتها .

وقف أبى على باب الغرفة صامتا ينظر إلى أمى ..

بدا ممزقا وحزينا .

وما أن رأته جدتى حتى صاحت فيه :

ـ ما الذى أتى بك أيها المنحوس .. أما كفاك مافعلت . ؟ لو ماتت هذه المسكينة فستكون أنت السبب .

فقال أبى فى صوت حزين ، دون أن يرفع عينيه عن أمى :

ـ لقد خانتنى .. بعد كل مافعلت من أجلها خانتنى .

ـ لم تخنك أيها التعس ، إن الذى خانك هو ألنتو ، لقد أراد أن ينتقم منها لأنها أمرأة شريفة لم تقبل أن تخون زوجها . ألم تلاحظ الجرح الذى فى وجهه ؟ لقد قذفته برفين بالاناء الزجاجى عندما أتى ليتهجم عليها هنا .. فى دارك ..

وروت له جدتى كل شىء ..

ورويت له كل شىء ..

وظل أبى على صمته . ونظرت اليه ، فرأيت الدموع وقد بللت وجهه . واقترب

من أمى ، وأخذ ينظر إليها ، ثم انحنى عليها وقبلها وأخذ يتمتم :

ـ برفين .. برفين ياحبيبتى .. سامحينى .. برفين .

ساءت حالة أمى فى الأيام التالية ، ولم تفارقها الحمى ، وظلت فى غيبوبة لاتدرى بما حولها .

ولم يفارق أبى غرفتها أبدا ، ظل جالسا إلى جوارها طوال الوقت . ينظر إليها ويبكى .

وكان الطبيب يحضر لرؤيتها مرتين يوميا ، ولم يخف قلقه الشديد لحالتها .

وبعد حوالى ثلاثة أيام .. خرجت زوجة سوهارتو من الغرفة وهى مضطربة وقالت لى :

ـ تيا .. تعالى معى إلى بيتى ، سوف أصنع بعض الطعام لأمك فتحملينه إليها ، إنها فى حاجة إلى طعام جيد .

وذهبت معها ، ونادت على ابنتها الصغيرة روسانا وتركتنا لنلعب سويا .

لم تكن لدى أى رغبة فى اللعب ، كنت أريد أن أحمل الطعام وأعود سريعا إلى أمى .

وانتظرت على مضض ..

وطال انتظارى ، وانتصف النهار ، واقترب المساء ، ولم تحضر المرأة .

وسألت روسانا :

ـ أين أمك ؟ .. إنها لم تصنع الطعام حتى أحمله إلى البيت .

فأجابتنى على الفور :

ـ إنها فى بيتكم .. لقد ماتت أمك برفين ودفنوها تحت التراب ولايريدون منك أن تحضرى الجنازة ..

لم أدر .. بنفسى إلا وأنا أجرى فى الشارع كالمجنونة لا أشعر بشىء من حولى ، وكلمات الصغيرة تدوى فى أذنى . وما أن وصلت إلى البيت حتى اندفعت إلى الداخل .. كان هناك بعض الرجال ، وبعض النسوه ..

وأسرعت إلى غرفة جدتى .. لم تكن أمى هناك ..

كان الفراش خاليا ، وملابسها مكومة فى أحد الأركان .

ودارت الدنيا من حولى ، ولم أعد أشعر بشىء ..

الفصل الخامس

وجلست أمام نافذة
يدخل منها شعاع
من ضوء القمر،
وأخذت أتطلع إلى
نفسي في المرآة
وتذكرت كلمات
روسانا :
إنك أجمل فتاة
في القرية، حتى
لو لم تتزيني
أو تصففي
شعرك.



قالت إسلام وهى تجفف دموعها :
ـ يا للمسكينه .. لقد تعذبت كثيرا ، قاتل الله الخمر يا أمى ، أنها السبب فى كل ماحدث . لابد أن أباك قد تاب عنها ، ولم يقربها بعد ذلك .
فقالت المرأة فى حزن :
ـ بالعكس يا ابنتى . فبعد وفاة أمى انغمس أبى فى الشراب لينسى نفسه وينسى ماحدث .
لقد أحب أمى ، أحبها بكل جوارحه ، ولم يحتمل فقدانها ، ولم يحتمل أن يكون هو السبب فى موتها .
فى البداية .. حاول كثيرا أن يتخلص من حياته ، ولم نتمكن من إنقاذه إلا فى اللحظات الأخيرة .
كان أشبه بمجنون لايدرى مايفعل . فى مرة أحضر سكينا حادة وحاول قطع يديه ، وأخذ يصيح والدماء تنزف منه بغزارة :
ـ أيتها اليد القذرة .. ابتعدى عنى .. لقد قتلت برفين .. لا أريدك .. ابتعدى عنى .
وفى مرة أخرى ، خلع ملابسه وجلس فى العراء تحت المطر ، وكان يبكى وينتحب ويرفع يديه إلى السماء :
ـ أيها المرض .. أيتها الحمى .. أين أنت ؟ يا الله .. خذنى إلى جانبك خذلى إليها .. برفين .. ها أنا قادم اليك .. وبمرور الوقت ، ومرور الزمن ، أصبح أبى حطام إنسان .
وكثيرا ما كنت أتساءل بينى وبين نفسى وأتعجب ، لماذا لم يطرد أبى ألنتو من

خدمته ، ومن المقهى .. ومن القرية . لماذا لم يشكوه إلى الشرطة بعد كل ماعرف عنه ، ولكنى لم أجد الجواب .

حتى كان يوم نادتنى فيه جدتى وقالت لى :

ـ تيا .. لقد أصبحت الآن فتاة كبيرة ، ولقد تغيرت الأحوال كثيرا عما قبل ، وسوف أخبرك بكل شىء حتى تفهمى الوضع جيدا .

وأخبرتنى بكل شىء ، وفهمت كل شىء ، وليتها لم تخبرنى ، وليتنى لم أفهم ، وليتنى أصبت بالصمم قبل أن أسمع ماسمعت .

علمت أن ألنتو استغل إدمان أبى للشراب فاشترى منه نصف المقهى من مال زوجته ، وجعله يمضى على ايصالات بمبالغ كبيرة ، مما اضطر أبى أن يبيعه النصف الآخر من المقهى والبيت ، كسداد لجزء من الدين .

وعلمت أيضا أن علينا أن نترك له المنزل ، ليسكن فيه مع زوجته ، وننتقل نحن إلى غرفة صغيرة خلف الحديقة ، كان أبى قد بناها منذ عدة سنوات لتكون مأوى للحصان والعربة ، وفى مقابل هذا .. فى مقابل أن يسمح لنا بالعيش فى هذه الغرفة الحقيرة ، كان على أن أذهب كل يوم لأعمل لديه كخادمة فى المقهى .

وهكذا يا ابنتى .. أصبح الخادم سيدا وأصبح السادة خدما أذلاء .

ومرت أيام من الشقاء ، وشهور من التعاسة ، وسنون من العذاب .

كنت أذهب فى كل يوم منذ الصباح الباكر إلى المقهى ، فأنظف الأرض ، والمناضد والمقاعد ، وأغسل الصحون ، وأعد الشاى والطعام ، وأقوم على خدمة الزبائن . وفى بعض الأحيان كان يرسلنى إلى بيته لأساعد زوجته فى أعمال المنزل .. دون مقابل . لم يكن هناك أحد من الخدم يؤدى نصف ماكنت أؤديه أنا من الأعمال ، ومع هذا لم أجد منه إلا كل إهانة وتجريح .

لم يكف ألنتو ما فعله بأبى .. لم يكفه ما فعله بأمى .. فاستدار لينفث سمومه من حولى .

لم يكن يتوقف عن الصياح والتهديد وتوجيه السباب طوال النهار . كان يتلذذ بإهانتى وتعذيبى . ولم أكن أرد ، أو أتكلم أو أعترض ، حتى أنه كان ينادينى .. تيا الصماء .

يا إلهى .. لم أكره أحدا فى حياتى بقدر ما كرهت هذا الرجل .. !!

ولكنى تحملت .. وصبرت .

تحملت حتى لايرمى بأبى فى السجن . فلم يكن لدينا مانسدد به باقى الدين .

وصبرت حتى لايلقى بجدتى إلى الطريق وهى عجوز ضعيفة لاتحتمل .

وفى آخر كل يوم ، كنت أعود إلى غرفتنا الكئيبة ، فأرتمى على فراشى منهوكة القوى ، وأظل أبكى حتى الصباح .

وكانت جدتى تحاول كثيرا أن تخفف عنى وتهّون على الأمر ، وكانت تقول لى :

ـ تيا .. ليس هناك بديل للصبر ، إذا لم تصبرى فستموتين ويموت أبوك ، وأموت أنا .. وإذا صبرت فسيكون الله معك ، فإن الله مع الصابرين يا ابنتى ، إن هذه المحنة ما هى إلا امتحان من الله سبحانه وتعالى ليعلم إن كنا من المؤمنين الصابرين أم لا . هيا يا ابنتى .. قومى وصلىّ واطلبى من الله أن يمنحك القوة ، فأنت فى أشد الحاجة إليها .

ودارت عجلة الزمن المتثاقلة . وبمرور الأيام وبمرور السنين تحسنت معاملة ألنتو كثيرا لى . لم يعد يصيح أو يسب أو يهدد ، لم يعد يرهقنى بالعمل ، أو يطلب منى مافوق طاقتى وفوق احتمالى . وحمدت الله ، وظننت أن الرجل ربما أفاق إلى نفسه ، وأن ضميره قد بدأ يستيقظ .

وفى يوم .. أعطانى بعض النقود وقال لى :

ـ خذيها لك ياتيا ، ربما تحتاجين لشراء شىء ما .

ولم أصدق نفسى ..

وفى المساء رويت لجدتى ماحدث ، فلم تعلق بأى كلمة ، وظلت صامته . والغريب أنها بدت منزعجة ، ولم أفهم السبب فى ذلك .

وفى الصباح قالت لى بصوت قلق :

ـ تيا .. إنك لم تعودى طفلة صغيرة كما كنت ، لقد كبرت وأصبحت شابة جميلة ، ويجب أن تكونى أكثر حرصا من ذى قبل .. هل تفهمين ما أعنى .. يجب أن تكون أكثر حرصا .

وفهمت مقصدها ، وفهمت لماذا أعطانى ألنتو النقود ، وتذكرت تصرفاته معى فى الأيام الماضية ، وأصابنى الخوف .

وتمنيت لو أنها كانت مخطئة .. ولكنها كانت على حق .

كان ألنتو يلاحقنى بنظراته باستمرار ، ويعطينى النقود والهدايا بسبب وبغير سبب ، ولم أكن أقبل أن آخذ أى شىء منها .

أصبح يطلب منى دائما أن أقوم بنفسى على خدمته ، حتى لو لم أقم بأى عمل آخر فى المقهى .

وبالتدريج .. زاد فى غيه ، أصبح يلمح لى بنواياه القذرة خفية ثم علنا .

حاولت كثيرا أن أردعه ، أحيانا باللين ، وأحيانا بالشدة دون فائدة .

ولم أدر ماذا أفعل .

كنت أفكر طوال الليل والنهار ، ماذا أفعل كى أوقف هذا الجبان عند حده .

كنت أحاول أن أجد الوسيلة كى أحمى نفسى منه ، ومن شروره . وأصبحت لا أنام الليل من شدة قلقى واضطرابى ..

وفجأة تذكرت شيئا لم أكن قد تنبهت له .

إنها زوجة ألنتو .. نعم زوجته .

إن الرجل يخاف منها ، إنها تملك نصف المقهى ، وفوق هذا كله فهى امرأة غيور ، لها شخصية قوية وليس من السهل خداعها .

وعندما كنت أذهب اليها لأساعدها فى المنزل ، كنت أشعر أنها الآمر الناهى فى البيت ، بالرغم من أنها كانت طيبة القلب ، وكانت تحسن معاملتى ، وكثيرا ما أعطتنى بعض النقود والطعام والملابس .

أذكر أنها فى مرة نادتنى بعد أن انتهيت من أداء عملى وهممت بالانصراف ، وقالت لى :

ـ أنظرى ياتيا .. هل يعجبك هذا الثوب ؟ تستطيعين الاحتفاظ به إن أردت ، فلم أعد فى حاجة اليه .

وأخذت الثوب وأنا لا أصدق نفسى ، كان ثوبا حريريا وردى اللون غاية فى الرقة .

وذهبت يومها إلى البيت سريعا ، ووضعته فى صرة صغيرة ودسسته بجانب فراشى ، وكنت أخرجه بين حين وآخر لأتطلع إليه وأتحسس ملمسه ، ولا أجرؤ على ارتدائه من شدة إعجابى به .

كانت كريمة معى إلى درجة كبيرة . وكانت تقول لى دائما :

ـ إن أباك له فضل كبير على زوجى ، إنه صاحب هذا المقهى ، ولكنها الخمر اللعينة . إن هذا البيت لايزال بيتكم ، وتستطيعين أن تطلبى منى أى شىء إن أردت .

كان زوجها يحترمها إلى أقصى درجة ، لم يكن يجرؤ على أن يرفض لها طلبا ، بل لم يكن يجرؤ حتى على أن يرفع صوته أمامها .

وفكرت ..

لو أنى أثرت غيرتها منى ، وجعلتها تشك فى تصرفات زوجها ، ماذا سيحدث عندئذ ، لابد وأنها ستفتح عينيها جيدا لتراقب حركاته ، وتضيق عليه الخناق ، ولاتعطيه الفرصة ليختلى بى ، وبالتالى أصل أنا الى غايتى ، وأرتاح منه ومن شروره .

وتحينت أول فرصة لتنفيذ خطتي .

في يوم طلب مني ألنتو الذهاب لأساعد زوجته كالعادة . وبمجرد أن انتهيت من عملي توجهت أولا الى الغرفة التي نقطنها ، لم يكن أبي هناك ، وجدتي تغط في النوم .

وأسرعت فاغتسلت وبدلت ملابسي بأخرى نظيفه ، وضيقت الازار على خصري ، ووضعت بعضا من المساحيق التي كانت تستعملها أمي على وجهي ، وانطلقت مرة أخرى الى منزل زوجته .

وما أن فتحت الباب ورأتني على هذه الحال حتى صاحت :

ـ تيا .. ماكل هذا ، إنك تبدين جميلة اليوم .

فابتسمت لها في دلال ، وتصنعت الخجل وقلت لها :

ـ شَكرا لك ياسيدتي ، لقد قال لي سيدي ألنتو هذا أيضا . لقد أصبح رقيقا جدا في معاملتي . لقد أعطاني اليوم نقودا لأشتري بها ورودا لأضعها في شعري ، إنه يحبني كثيرا .. مثل ابنته .

وأخذت أتطلع إلى نفسي وأصلح من هندامي أمام مرآة كبيره بجانب الباب . ونظرت إليها خفية ، وعندما رأيت وجهها أيقنت أن خطتي قد نجحت .

نعم ... نجحت خطتي .

نجحت في أن أزرع بذور الشك في صدر المرأة ، وأشعل نار الغيرة في قلبها . وكان لي ما أردت ..

لم تدع الفرصة لزوجها أن يحقق أغراضه أبدا ، أخذت تراقبه في كل لحظة . كانت تحضر إلى المقهى فجأة ، بسبب وبغير سبب أكثر من ثلاث أو أربع مرات في اليوم ، وأمرتني أن أبقى في المغسل لتنظيف الأواني والصحون والأغطية ، ولا أغادره أبدا ، بحجة أن العمل في المقهى مرهق ولايناسب سوى الرجال .

وسعدت بهذا كثيرا ، وأحسست براحة كبيرة .

وكنت أكتم الضحك وأنا أرى ألنتو يحوم حول المكان ولايجرؤ على الدخول . وحتى عندما يدخل لأمر ما ، كان يدخل متلصصا ، يتلفت من حوله ، خوفا من أن تحضر زوجته فجأة فتشعل النار على رأسه .

وفى المساء ، عندما أجلس أنا وجدتى لنتناول طعام العشاء ، كنت أحكى لها عنه ، وعن زوجته وعن خوفه منها ، ونظل نتضاحك فى سعادة ، ونسخر منه حتى يحين موعد النوم .

والحقيقة أن هذه الحادثة أفادتنى كثيرا ، فقد أعطتنى شيئا من الثقة بالنفس . وأيقنت أننى بشىء من الصبر والحيلة وحسن التصرف أستطيع أن أحل مشاكلى بمفردى ، وأن أحمى نفسى ، حتى وإن لم يكن هناك من يقف بجانبى ويساعدنى .. يكفينى أن الله معى .

وثانيا .. عرفت شيئا هاما ، جعلنى أشعر بنشوة فى أعماقى ، وهو أننى لا أفتقر الى الجمال ، وأنه بالرغم من فقرى ، وبالرغم من إهمالى لمظهرى ، فاننى أبدو جميلة فى عيون الناس .

ولهذا قررت الحصول على مرآة .

وفى اليوم التالى ذهبت لزيارة روسانا ابنة جارنا سوهارتو ، وما أن رأتنى حتى صاحت :

ـ تيا .. أمازلت على قيد الحياة .. أين كنت ، إننى لم أرك منذ عدة أسابيع .

وأسرعت واحتضنتنى فى شوق .

ـ أعذرينى ياعزيزتى ، تعرفين أنى لم أعد تيا المدلله كما كنت فى الماضى ، إننى لا أعود من عملى فى المقهى قبل المساء وأعود مرهقة ، منهوكة القوى ، فى أشد الحاجة إلى النوم والراحه .

ـ لا عليك ياعزيزتى .. وعلى كل حال كنت سأحضر بنفسى لزيارتك غدا ودعوتك ، ألا تعلمين .. سأتزوج ياتيا سأتزوج ..

وأحسست بالفرح من أجلها ، فاحتضنتها وقبلتها فى وجنتيها :

ـ أتمنى لك السعادة من كل قلبى ياروسانا ، إنك تستحقين كل خير .

ـ شكرا لك ياتيا ، كم أنا سعيدة ، سوف يقيم أبى حفلا كبيرا فى الأسبوع القادم بمناسبة زفافى ، وسوف يكون هناك بعض كبار الضيوف ، وسيحضر زوج خالتى تنكو محمد دمنهوجى من المدينة ، تعرفين أنه من كبار رجال الوزارة ، وسوف يكون بصحبته سيد عظيم من بلاد الحجاز ، وكذلك ستحضر جميع صديقاتى ، ولابد من حضورك أنت أيضا ، أرجوك لابد أن تحضرى ياتيا .

ـ لا أظن أننى سأستطيع الحضور ، ليس لدى وقت كما قلت لك ، وهناك شىء

آخر ، إننى لا أملك ثوبا مناسبا ، إننى حتى لا أملك مرآة لأصفف شعرى وأتزين أمامها .

ـ أيتها الماكره .. تعلمين أنك أجمل فتاة فى القرية حتى لو لم تتزينى أو تصففى شعرك . وعلى كل لدى مرآة كبيرة يمكننى الاستغناء عنها ، ويمكنك ارتداء ماتشائين من ثيابى ، ألست أختا لك .

ـ بالطبع ياعزيزتى .. شكرا لك ، سوف أقبل المرآة كهدية منك ، أما الثوب فيمكننى تدبير أمره .

وللمرة الثانية ، ازددت ثقة فى نفسى .

لقد حصلت على ما أريد ، بالحيلة وشىء من الذكاء حصلت على المرآة .

وأسرعت إلى الغرفة ، ودسستها تحت غطاء سميك .

وبعد أن نامت جدتى ، قمت مرة أخرى ، وجلست أمام نافذة يدخل منها شعاع من ضوء القمر ، وأخذت أتطلع الى نفسى فى المرآة ، وتذكرت كلمات روسانا :

« إنك أجمل فتاة فى القرية ، حتى لو لم تتزينى أو تصففى شعرك » .

وأحسست بسعادة غامرة وأخذت أتأمل وجهى .. إننى بالفعل جميلة ، إن لى عينين نجلاوين ، وأنفا صغيرا مثل أنف أمى ، وشعرى .. إنه ناعم كالحرير ، ليس هناك فتاة فى القرية لها مثل هذا الشعر . إن لى بشرة سمراء جميلة ، وقواما ممشوقا ، و ...

وظللت على هذه الحال أكثر من ساعة ، حتى أحسست بالنعاس يداعب أجفانى ، فقمت إلى فراشى ، ولم ألبث أن استغرقت فى النوم .

فى الأيام التالية ، لاحظت أن هناك نشاطا غير عادى فى المقهى .

بدا الجميع فى حركة مستمرة ، وحضر عمال من المدينة لعمل بعض الاصلاحات والترميمات .

فأعيد إصلاح المقاعد والمناضد ، ورممت بعض أجزاء من الحائط وأعيد طلاؤه مرة أخرى ، وأعيد كذلك طلاء جميع الأبواب والنوافذ ، ووضعت بعض الستائر الملونة هنا وهناك ، وأخرجت من مخزن المقهى بعض الأوانى والأكواب التى لم تكن تستعمل إلا

لكبار الضيوف والزائرين ، أو فى أيام الأعياد .

وسألت خادما عجوزا فى المقهى عن حقيقة الأمر فقال لى :

ـ ألم تعلمى بعد ، سوف يصل إلى القرية سيد عظيم من بلاد الحجاز فى صحبة تنكو محمد دمنهوجى وسينزلان فى ضيافة سوهارتو حتى موعد الزفاف .

ـ أعلم هذا ، ولكن ما دخل المقهى فى ضيوف سوهارتو ، ولم كل هذه الزينة وكل هذا الاستعداد ؟

فقال وهو يهز يده فى انفعال :

ـ إفهمينى يابنيتى .. عندما يحضر السيد العظيم سوف يدعوه ألنتو لزيارة المقهى ، وبالتالى سوف يكون هناك العديد من الزوار ومئات من الناس الذين سيأتون من مختلف الأماكن ومن جميع المناطق المجاورة ليسلمّوا عليه . إنه رجل مبروك ، لقد حضر من جوار الحرم الشريف .

وتدَخل خادم آخر فى الحديث :

ـ لقد تعرف تنكو دمنهوجى على السيد عبد المجيد عندما ذهب إلى بلاد الحجاز لأداء فريضة الحج منذ أكثر من عشر سنوات . إن والد السيد هو الذى منح تنكو دمنهوجى اسم محمد ، وأعطاه صكا بذلك .

وقال ثالث :

ـ يقولون إنه فى اليوم الذى وصل فيه السيد إلى منزل تنكو دمنهوجى ، شفى الحصان الأدهم الذى كان مريضا منذ مدة طويلة ، وعثرت زوجته على سوار ذهبى كانت قد فقدته وكادت تيأس من العثور عليه مرة أخرى .

فقاطعه الأول :

ـ ألم أقل لكم إنه رجل مبروك . عندما يحضر لابد أن أحظى بالسلام عليه ، وتقبيل يده الكريمة .

وتركتهم يتحدثون وعدت الى المغسل ، وانهمكت فى أداء عملى ولم أعط الأمر أية أهمية ، فلم أكن أعلم أن مجىء هذا الرجل سيغير مجرى حياتى الى هذه الدرجة .

وفى اليوم التالى ، حضر الجميع إلى المقهى وهم يرتدون ثيابا جديده وقاموا بتغيير

جميع الأغطية والمفارش ، وجيء بمقعد كبير ، ووضع فى أحد الجوانب ، ورصت عليه وسائد صغيره ثم غطى بقماش من المخمل ، وعلى كل جانب وضعت منضدة صغيرة عليها بعض الورود .

وأحسست وكأننا فى يوم من أيام الأعياد ..

وعند الظهيرة أعلن عن وصول الضيوف ، واندفع الجميع إلى الباب لاستقبالهم .

دخل أولا تنكو دمنهوجي ، وكنت قد رأيته منذ عدة سنوات فى بيت سوهارتو ، وتلاه رجل أبيض البشرة طويل القامة ، يرتدى الملابس العربية ، أيقنت أنه السيد عبد المجيد ، ثم دخل سوهارتو ، ودخل بعد ذلك جمع غفير من الرجال .

أسرع ألنتو إلى السيد وقبل يده فى احترام وإجلال ، واندفع بعده باقى الرجال يقبلون يديه وكتفيه ، ويتمسحون فى ثوبه وهو يبتسم لهم فى مودة ويتمتم بعبارات لم أسمع منها شيئا .

ثم قادوه الى المقعد المخصص له ، فجلس عليه فى وقار شديد وجلس الجميع أمامه على الأرض ينظرون إليه فى احترام وتبجيل .

ووقفت على باب المغسل أنظر اليه من بعد وأتأمله .

كنت أحسب أنه رجل عجوز ، ولكنه كان لايزال شابا فى حوالى الأربعين من عمره . كان ضخم الجثة ممتلىء الجسم إلى حد ما ، قوى البنية ، وجهه ينطق بالصحة ، تكاد الدماء تنفر من وجنتيه وكفيه . وكان يرتدى خاتما ثقيلا من الفضة فى إصبعه الصغير ، وأمسك بيده مسبحة أخذ يعبث بها بين حين وآخر .

واقتربت قليلا ، وأخذت أتأمله مشدوهة بمظهره وهيبته .

ونادانى سوهارتو :

ـ تيا ... اقتربى هنا ... تعالى وتشرفى بتقبيل يده الكريمة .

وأحسست بشىء من الخوف ..

ومشيت إلى مجلسه وقدماى ترتعشان ، وركعت أمامه ، وقبلت يده فى وجل دون أن أنظر إليه ، وبسرعة عدت إلى مكانى مرة أخرى .

ونظرت إليه من بعيد ، فوجدته يتطلع إلىّ بنظرة فاحصة ، زادت من خوفى . ثم مال على سوهارتو وأخذ يتحدث معه وهما ينظران إلى ناحيتى ، فأسرعت إلى داخل المغسل .

وفى المساء رويت لجدتى كل ماحدث بالتفصيل ، وأخذت هى تستمع إلىّ باهتمام شديد ، وفى النهاية قلت لها :

ـ لهذا لن أذهب غدا إلى حفل زفاف روسانا ياجدتى ، إنها المرة الأولى التى أحضر فيها حفلا كبيرا مثل هذا ، وأعتقد أننى مازلت لا أحسن التصرف ، ولا أحب أن أكون بمفردى وسط هؤلاء ، لابد وأنى سوف أشعر بالخوف والارتباك . آه ياجدتى ، كم أنا فى حاجة الى وجود أمى .

ولم ترد جدتى ، وظلت صامتة تفكر مدة طويلة قبل أن تقول لى :

ـ هل تذكرين حكاية سندريلا التى قصصتها عليك وأنت صغيرة ، تلك الفتاة الفقيرة الجميلة التى ذهبت إلى الحفل الملكى فأحبها الأمير وتزوجها من دون فتيات المدينة جميعا .

ـ نعم أذكرها جيدا ، ولكن ما دخل القصة فيما نحن فيه .

ـ يا بنيتى الصغيرة .. ألم تفهمى إلى الآن لماذا كان ينظر اليك هؤلاء الرجال فى المقهى ، لقد أعجبوا بجمالك ورقتك .

لقد حظيت بإعجاب هؤلاء الذين تخافين الذهاب إلى الحفل من أجلهم . إنك ياتيا جميلة وطيبة القلب وتستحقين الزواج من أفضل الشباب . لذا لابد أن يراك الناس جميعا ، ولابد من ذهابك إلى الحفل غدا ، فما يدرينا .. ربما كان الأمير هناك فى انتظار سندريلا الجميلة .

وأحسست بنشوة غامرة فاحتضنتها وقلت وأنا أحاول أن أخفى مشاعرى :

ـ آه ياجدتى .. إنك تبالغين كثيرا .

ـ أيتها الشقية ، تعرفين أنى أقول الحقيقة ، إذهبى الآن إلى فراشك فأنت فى حاجة إلى قسط وفير من النوم .

الفصل السادس

فتنهدت جدتي في
حزن وقالت :
- أرجو هذا يا ابنتي ،
أرجو أن يكون
أميرًا بالفعل ،
وليس صقرًا جاء
ليبتلع الحمامة
الوديعة ...



فى اليوم التالى ، وهو اليوم المحدد لزفاف روسانا ، قضيت النهار بأكملـه فى المغسل بمفردى .

لم يكن بالمقهى سوى اثنين او ثلاثة من الخدم ، وذهب الباقون جميعا لحضور الحفل . ولم يسمح لى ألنتو بالذهاب الا بعد انتهاء فترة عملى ، تعنتا منه ورغبة فى إيلامى وإذلالى .

لم يكن هناك أى عمل أؤديه ، وظللت طوال الوقت أفـكر فى الحفـل ، وفى المدعوين ...... وفى الطعام .

نعم الطعام .... لابد وأن هناك أنواعا كثيرة من الأطعمة ومن اللحوم والحلوى . لقد مضت شهور طويلة لم أتذوق فيها الحلوى . سنوات ونحن على هذه الحال ، نأكل كل يوم الأرز والسمك . فى الإفطار أرز وسمك،فى الغداء أرز وسمك ، وفى العشاء أرز وسمك .

يا إلهى لكم سئمت من السمك ومن رائحته ، ولكن ماالعمل وليس لدينا غيره ، إنه الطعام المتوفر الذى يمكننا الحصول عليه بأقل ثمن . لم يكن هناك أحد يتضرر سواى ، كان أبى يأكل وهو لا يفرق إن كان يأكل أم يشرب ، أما جدتى فلم تكن تمل منه أبدا ، وكانت تجده ألذ طعام فى الدنيا .

وعند الظهيرة ، وعندما أحسست بالجوع ، وتذكرت المائدة الممـددة فى بيـت سوهارتو ، فكرت فى أن أترك المقهى وأسرع الى بيتهم . ولكننى راجعـت نفسى ، وجلست فى مكانى مرغمة .

آه ياربى .... سامحك الله يا ألنتو .

وما أن اقترب المساء أسرعت الى الغرفة .

اغتسلت أولا ثم أخرجت المرآة ووضعتها بجانب الحائط ، وأحضرت مصباحا كبيرا ، وأشعلته ، ووضعته بجانبى ، وأخرجت علب المساحيق ورصصتها أمامى ، وأخذت أتذكر كيف كانت أمى تستخدمها حتى أفعل مثلها .

ومضت فترة طويلة قبل أن أنتهى من زينة وجهى ، مع أنى كنت حريصة على الا أضع الكثير من المساحيق ، فقد خفت أولا ألا أحسن استخدامها وليست لى خبرة فى ذلك ، وثانيا لأنى كنت أعرف أن وضع المساحيق وكثرة الزينة لا يليق بفتاة فى مثل سنى .

ونظرت الى وجهى فى المرآة فأحسست بالسعادة والرضا ، كان يبدو جذابا ومشرقا ، واختفى الشحوب ، واحمرت وجنتاى وازدادت عيناى اتساعا .

وبسرعة أخرجت المشابك من شعرى ، ومشطته جيدا وأحضرت بعض الورود البيضاء التى كانت تستعملها أمى فى الماضى ، وجمعت شعرى الغزير فى جديلة واحدة طويلة تتداخل معها الورود . ثم أخرجت الإزار الوردى وارتديته بعناية شديدة .

وعندما نظرت فى النهاية إلى المرآه ، لم أصدق نفسى وصحت :

ـ جدتى .... قومى وانظرى بالله كيف أبدو !!.. واعتدلت جدتى واستدارت ناحيتى وأخذت تتأملنى طويلا ، ثم قالت وهى تبتسم :

ـ ألم أقل لك ، هيا اسرعى فإن الأمير فى انتظار سندريلا الجميلة .

لم يكن منزل سوهارتو يبعد كثيرا عن بيتنا كما قلت لك .

أخذت طريقى إلى هناك سيرا على الأقدام ، وأنا أكاد أطير مع نسمة الهواء البارد التى كانت تداعب وجهى وشعرى وإزارى .

حقا لقد كنت سعيدة من أعماقى ، ولكننى أيضا كنت أشعر بالخوف ، الخوف من المجهول ، أو الخوف من مواجهة موقف لم أعتده من قبل .

وأسرعت الخطى حتى وصلت إلى البيت .

كان هناك بعض الصبية والفتيات الصغيرات يلعبن أمام باب البيت وقد ازدحم المكان بعربات الخيل . وجاءنى صوت موسيقى تعزف بالداخل مصحوبة بضجة المدعوين وضحكاتهم .

ووقف على باب المدخل خال روسانا وأخوها الأكبر يحيون بعض الضيوف لا أدرى مرحبين أم مودعين .

ونظر إلى أخوها وكأنه لم يرنى من قبل ..... واقتربت منهما ، وسلمت مهنئة ، فلم يرد وظل يحملق كالمشدوه ، فتركته وأسرعت إلى داخل البيت ، ووقفت على باب غرفة كبيره على يمين المدخل كانت قد امتلأت بالمدعوين من الرجال والنساء والأطفال .

وتوقفت الضجة ... وتوقف الحديث ... وتوقفت الضحكات واتجهت الأنظار كلها إلى ناحيتى ، وأخذ الجميع ينظرون إلى بإعجاب شديد .

وأحسست بخجل وارتباك وخوف لم أشعر به من قبل . واندفعت الدماء حارة إلى وجهى ، ولفترة قصيره وقفت حائرة لا أدرى ماذا أفعل . وأخيرا استدرت وقد قررت العودة إلى البيت مرة أخرى .

وشعرت بيد تمسك بى من الخلف ، والتفت .... كانت زوجة سوهارتو .

- تيا .... مرحبا بك ، إنك تبدين اليوم فاتنة . تعالى لتجلسى مع صديقات روسانا .

وأخذتنى من يدى الى الداخل .

سرت معها وأنا لا أكاد أرى ما أمامى من شدة خجلى وارتباكى . وجلست فى وسط الفتيات وأنا لا أستطيع أن أرفع عينى عن الأرض . وكلما شعرت بالأنظار من حولى تكاد تلتهمنى ، ازددت خجلا وازددت ارتباكا .

وبالتدريج عادت الضجة مرة أخرى ، وعادت الضحكات تملأ الغرفة ، وسمعت همهمة من حولى :

- يا لها من سمراء فاتنة ... هل هى حقا تيا ابنة سراج الدين ...؟!

ـ إنها تبدو كأميرة جميلة ... كم هى رقيقة ...!!..
ـ انها تصلح عروسا رائعة لولدى ... سوف أخطبها فى أقرب فرصة ......
ـ أنظرى كيف صففت شعرها ... سوف أشترى مثل هذه الورود ولكن أين لى مثل هذا الشعر ...؟!
وهكذا لم يكن هناك حديث إلا عنى وعن مظهرى وعن شعرى وعن جمالى .

وبعد قليل زاولنى الخجل والارتباك إلى حد ما . وأخذت أتطلع إلى المكان من حولى خفية ، وأتأمل المدعوين ، وكانت فرقة الغناء والعزف قد غادرت المكان لفترة قصيرة من الراحة .

كانت الغرفة متسعة ، وقد فتح باب كبير فيها متصل بحديقة صغيرة خلف البيت ، امتلأت هى الأخرى بالمدعوين .

ولمحت فى أحد الأركان السيد عبد المجيد يجلس فى وقاره المعهود ، وجلس الى جواره سوهارتو ، والتف من حوله عدد كبير من الرجال والنساء .

وسألتنى فتاة بجانبى :
ـ لماذا تأخرت عن الحضور . إن الجميع هنا منذ الظهيرة .
لقد كان طعام الغداء لذيذا جدا .
ـ كنت متعبة قليلا ، وكان لدى بعض الأعمال لابد وأن أؤديها . ولكن أين روسانا ....؟
ـ إنها فى الغرفة المجاوره ، هل تودين رؤيتها .... سوف أذهب معك .

كانت روسانا تجلس على مقعد فى أحد جوانب الغرفة ، وقد ارتدت ثياب العرس المطرزة بخيوط الذهب ، والموشاة باللآلىء الصغيرة ، وتزينت بكثير من الحلى . وإلى جوارها جلس العريس فى كامل هيئته وزينته . بدا لى شابا صغير السن خجولا .

وسلمت عليهما مهنئة ، وقبلت روسانا ، وتمنيت لها السعادة من قلبى ، وجلست أتحدث معها قليلا وأنا أتأملها .... كانت تبدو مشرقة وسعيدة ، إن أمامها حياة

جديدة ، ومستقبلا جديدا ، وحلما بسعادة دائمة .

وبعد قليل استأذنت منها ، وتركتها ، وعدت إلى مكانى فى الغرفة مرة أخرى .

وجاءت زوجة سوهارتو وجلست إلى جانبى وقالت لى :

ـ ما هذا ياتيا .... لقد خلبت الألباب ، وحظيت بإعجاب الجميع ، حتى السيد عبد المجيد أعجب بك ، وسأل عنك سوهارتو أكثر من مرة .

ومالت إلى ناحيتى قليلا ، وقالت بصوت منخفض :

ـ يبدو أنه ينوى الزواج منك .... يا لك من محظوظة .

وأحسست بقلبى يخفق بعنف ، ولم أصدق نفسى .

ونظرت إلى ناحيته . كان يجلس وسط الرجال وقد انهمك فى الحديث . بدا لى بهى الطلعة الى حد كبير . وأحسست بنشوة فى داخلى ......

إن الجميع يحترمونه ، ويخافون منه ، ويجلسون عند قدمه ، ويقبلون يديه .... وأنا ... أنا أصبح زوجة له ، أصبح زوجة لهذا الرجل العظيم وأما لأطفاله ، هل هذا معقول ؟! لابد وأنى أحلم ......

والتفت الرجل ، ورآنى أنظر إليه فابتسم لى .

وأحسست أن قلبى قد توقف ، وبسرعة أدرت وجهى إلى الناحية الأخرى .

ولم تلاحظ زوجة سوهارتو ما اعترانى من ارتباك ، فاستمرت تتحدث عنه وقالت :

ـ يقولون أنه غنى جدا وله مكانة كبيرة فى بلاده ، ولكنه أحب الحياة فى جاوه ، وينوى البقاء فيها لمدة طويلة ، لهذا لابد له أن يتزوج . آه يا تيا ، كم أنا سعيدة من أجلك ، لو أنك تزوجت منه فسوف تعيشين إلى جواره كالأميرة !

كانت مائدة العشاء حافلة بألذ أنواع الطعام والحلوى ، وكانت هناك مائدتان كل واحدة فى غرفة منفصله ، إحداها للرجال ، والأخرى للنساء .

وأخذت ألتهم الطعام بشهية غريبة ، وكأنى لم أر الحلوى طوال عمرى . وفجأة .... لا أدرى لماذا تذكرت جدتى ، وأحسست بغصة فى حلقى . تذكرتها وهى

قابعة فى الغرفة المظلمة ، تنتظر حضورى لأطهو لها الأرز والسمك .

آه يا جدتى الحبيبه ... ليتنى أستطيع أن أحمل إليك قليلا من هذا الطعام اللذيذ ، لابد وأنك ستسعدين به كثيرا .

وفقدت كل رغبة فى الأكل ، فقمت من فورى وعدت إلى مكانى فى الغرفة .

لم تمض ساعة إلا وكان الجميع قد عادوا إلى أماكنهم ، وعادت فرقة الغناء والرقص التى أحضرها سوهارتو من المدينة ، عادت تعزف مرة أخرى ، وتملأ المكان بجو من الأنغام والمرح ، نسى الحاضرون معها أنفسهم ، ونسيت نفسى معهم .

وعندما حان موعد الانصراف ، اقترب منى سوهارتو وقال لى :

ـ تيا ... أخبرى أباك أن السيد عبد المجيد سوف يشرفكم بالزيارة بعد غد . سوف نذهب جميعا لحضور الحفل المقام فى منزل أهل العريس غدا ، ولابد وأن يكون أبوك فى انتظارنا بعد غد ، هل تفهمين . ثم قال وهو يبتسم ويربت على كتفى :

ـ إنك تستحقين كل خير يا ابنتى .

وأحسست بخجل شديد ، فانفلت من أمامه ، واندفعت الى الطريق .

أسرعت فى طريقى إلى البيت ، وأنا أشعر بالسعادة ، وبشوق لرؤية جدتى ، ورغبة شديدة فى أن أروى لها كل شىء .

وعندما وصلت ، دخلت الغرفة فى حذر ، فقد كان الوقت متأخرا وخفت أن يكون النعاس قد غلبها ، فلم تستطع انتظارى .

كانت الغرفة مضاءة بمصباح صغير ، ولمحت جدتى تجلس فوق فراشها وهى تحملق فى الباب ، فاندفعت إليها ، واحتضنتها وأخذت أقبلها فى شوق شديد . فقالت مداعبة :

ـ ما هذا يا تيا .... يبدو أنك تحبين جدتك العجوز حقا .

ـ أوه يا جدتى ، أولا تعلمين هذا حتى الآن . لقد كان الحفل رائعا ، ليتك كنت معى . وكان الطعام شهيا ولذيذا وكانت هناك أنواع كثيرة من الحلوى ، ولكن نفسى

عافتها ، فقدت كل رغبة فيها ، لأنك لم تكونى معى يا جدتى .

ولم ترد ، ولكنها كشفت غطاء صغيرا ملونا بجانب فراشها وقالت لى :

ـ أنظرى أيتها الشقيه .....

كانت هناك أطباق كثيرة ، مملوءة بأنواع من الأطعمة والحلوى التى كانت بالحفل .

وصحت فى فرح :

ـ ما هذا يا جدتى .... من أحضره لك ؟

ـ لقد أرسلته لى زوجة سوهارتو ، إنها جارة طيبة حقا . هل رأيت ، لقد حرمت نفسك يا صغيرتى دون أى داع . لقد أكلت أنا من الطعام أكثر منك .

واحتضنتنى فى حب بالغ ، ثم سألتنى :

ـ أخبرينى ... هل رآك الأمير ؟

فابتسمت فى خجل وقلت لها :

ـ نعم يا جدتى نعم .... لقد رآنى أجمل أمير ، ليس فى القرية ولا فى المدينة فحسب ، ولكن فى العالم بأسره .

أتعلمين من هو .... أنه السيد عبد المجيد ، هذا الرجل العظيم القادم من بلاد الحجاز الذى حدثتك عنه من قبل ، هل تصدقين يا جدتى .... أنه ينوى الزواج منى أنا ، سوف أصبح زوجة لأعظم أمير فى العالم .

ولم ترد ... ولم تقل شيئا ، وظلت تنظر الىّ فأكملت :

ـ سوف يحضر بعد غد لمقابلة أبى ، يقولون أنه غنى جدا . لابد وأن نقيم حفل زفاف كبير يا جدتى ، سوف أشترى ملابس وحليا كثيرة ، وسيكون لنا بيت كبير ، وعربة خاصة ، وسوف يذهب أطفالى إلى المدارس ويأكلون الحلوى كل يوم .

وظلت جدتى على صمتها ....

ما بالك ، ألست سعيدة مثلى يا جدتى ، أخبرينى فيما تفكرين ...؟

فقال فى تردد :

ـ إذا كان هذا السيد غنيا فى بلاده كما قلت ، فلماذا يتركها ليعيش هنا .

ما الذى يجعله يترك أكرم بلاد الدنيا ليعيش فى بلادنا . ألا ترين أنه شىء غريب ؟

ـ لا تسيئى به الظن يا جدتى ، لقد أحب جاوه ، وأحب فيها جمال الطبيعة ، وأحس بحاجة الناس فى أن يكون بينهم رجل مثله ، ولهذا قرر أن يمكث فيها عدة سنوات .

وبعد هذا ....؟

وبعد هذا يعود إلى بلاده .

ـ وهل سيأخذك معه ؟

ـ بالطبع يا جدتى .... وهل سيرحل ويترك زوجته من خلفه ، سوف أسافر معه لنعيش فى بلاد الحرم ، وستأتين معى يا جدتى ، ألا تحبين العيش بجوار الحرم ؟

ـ إن هذا حلم صعب المنال ، لا تفكرى فى أمرى ، إننى عجوز وعلى حافة القبر ، فكرى فى نفسك وفى مستقبلك ، إنك صغيرة السن وجميلة ولا زالت أمامك سنوات طويلة من العمر .

ـ لقد فكرت جيدا ، وقررت الزواج من أجمل أمير فى العالم .

فتنهدت جدتى فى حزن وقالت :

ـ أرجو هذا يا ابنتى ، أرجو أن يكون أميرا بالفعل ، وليس صقرا جاء ليبتلع الحمامة الوديعة !

ظهر أبى قلقا إلى حد كبير ، فلم يشرب الخمر ، واغتسل واستبدل ثيابه بأخرى نظيفة . وعندما حضر الضيوف استقبلهم خارج الغرفة ، وأجلسهم على مقاعد أحضرها خصيصا من المقهى . وأخذت أراقبهم من الداخل من خلال شق طويل فى جدار الغرفة الخشبى .

كانوا خمسة رجال ، السيد عبد المجيد ، وتنكود منهوجى ، وسوهارتو وولده الأكبر ، وشاب عربى هادىء نحيف أسمر البشرة يعرج قليلا فى مشيته ، كان يتبع السيد عبد المجيد دائما كظله .

حاولت أن أسمع ما يقولون فلم أستطع ، وأخذ قلبى يخفق بعنف . كنت أشعر بقلق واضطراب لا مثيل له . وكانت جدتى تراقبنى وفى عينيها نظرة حزينة .

مكث الرجال يتحدثون حوالى الساعة ، ولم يلبثوا أن انصرفوا ، وبسرعة اندفعت إلى فراشى وتصنعت النوم .

وبعد قليل دخل أبى إلى جوار جدتى وقال لها فى اهتمام شديد :

ـ إن السيد عبد المجيد يرغب فى الزواج من تيا يا أمى ، لقد فتحت أبواب السماء لهذه الشقية . إنه رجل عظيم مبروك .

لقد أعطانى هذا المبلغ الكبير من المال لتشترى به ما سوف تحتاج إليه من ثياب ، وسوف يحضر بعد ثلاثة أيام ليعقد القران ويأخذها معه إلى المدينة .

وأحسست بخيبة أمل ، فقفزت من مكانى صائحة :

ـ ألن يكون لى حفل زفاف يا أبى ..... ألن أرتدى ثياب العرس مثل باقى الفتيات ؟!

ونظر إلىّ أبى بدهشة . فلم يكن يعلم أنى أتسمع الى الحديث .

ثم قال وهو يحاول أن يبتسم :

ـ لا تتصرفى كالأطفال يا تيا ، ولا تكونى غبية ، إن أى فتاة أخرى لا تحلم أن تتزوج رجلا مثل السيد عبد المجيد ، إنه غنى جدا . هل تعلمين ..؟ سوف يذهب

غدا لتسديد ما على من دين لألنتو ، ستعيشين معه فى المدينة فى رفاهية وسعادة يا تيا .

ـ وهل ستأتون معى .... أنت وجدتى ..؟

ـ لا يا ابنتى ، ولقد وعدنى السيد عبد المجيد بأن يحضر امرأة لتقوم على خدمتنا بعد رحيلك .

ـ لا يا أبى .. لابد أن تأتيا معى ، لابد لكما أن تتركا هذه الغرفة الحقيرة .

لقد طلب منى هذا بالفعل ، ولكنى رفضت .

وصمت قليلا ، ونظر الى الأرض ، وقد احتقن وجهه ثم قال بصوت حزين :

ـ لن أترك هذا المكان أبدا أبدا ، لن أتركه ما حييت .

لقد كانت برفين تعيش هنا ... وماتت هنا ... وسوف أموت هنا لأدفن الى جانبها . وهاجت شجونه ، واختنق صوته ، وأخذ يتمتم :

ـ برفين يا حبيبتى ... برفين ... برفين يا حبيبتى .

وانخرط فى بكاء مرير ، ولم يلبث أن اندفع إلى خارج الغرفة لا يلوى إلى شىء .

فى الأيام التاليه اصطحبتنى زوجة سوهارتو إلى سوق المدينة .

كنت سعيدة .... اشتريت كثيرا من الملابس الزاهية الفخمة ، منها ثوب أبيض مطرز بخيوط فضيه ، وآخر حريرى ملون واشتريت كذلك ورودا لشعرى ، وحليا ملونة ومرآة كبيرة ، ومساحيق للزينة ، وبعض زجاجات العطر ، وغطاء حريريا للفراش ، وأشياء أخرى كثيرة ، وأحضرت لى أيضا حقيبة جلدية كبيرة لأجمع فيها ملابسى .

وفى مساء اليوم المحدد ، حضر السيد عبد المجيد بصحبة عدد قليل من الرجال ، وأحضر معه الكثير من الهدايا .

وكنت أنتظر فى كامل زينتى .

وبعد وليمة صغيرة كان قد أعدها أبى ، عقد القران ، وكان شاهدا العقد تنكو محمد دمنهوجى ، وذلك الشاب العربى الأسمر وقد عرفت بعد ذلك أن اسمه منصور .

تم كل شيء بسرعة ، ولم أفق إلى نفسى إلا وأنا أجلس فى المقعد الخلفى للعربة ، وإلى جانبى السيد عبد المجيد ، وجلس منصور فى المقعد الأمامى ليتولى القيادة .

لا أدرى لماذا أحسست بالخوف والعربة تبتعد بنا عن القرية ، ونظرت اليه .....

كان يجلس فى هدوئه المعتاد ، صامتا لا يتكلم ولا يبتسم ، بدا وكأن الأمر لا يعنيه فى شيء ، أو كأنه يجلس فى العربة وحيدا . أخذ يعبث بسبحته قليلا ، ثم أدخلها فى جيبه وأخرج منديلا بصق فيه وأعاده إلى مكانه مرة أخرى ، وبعد أن أصلح من هندامه قليلا أخذ يتطلع من النافذة .

وتعجبت له ، إنه لا يشعر مطلقا بوجودى إلى جانبه . كان هادئا ، واثقا من نفسه لدرجة أصابتنى بانقباض فى صدرى .

ودرت وجهى إلى الناحية الأخرى أتطلع إلى الطريق ، كان كل شيء من حولنا يجرى مبتعدا .... الأرض ، البيوت ، الأشجار ، القرية ...... وجدتى . آه يا جدتى الحبيبة أين أنت ؟!

وانسابت دموعى رغما عنى .

آه يا جدتى .... لا تبتعدى عنى وتتركينى وحيدة ، إننى فى حاجة اليك . إن الحق معك ، فما كان يجب أن أترك القرية أبدا وأبتعد عنك . من سيؤنس وحشتى فى غيابك ، ومن سيؤنس وحشتك فى غيابى وأنت فى هذه الغرفة المظلمة ، لن يحبك أحد بقدر ما أحببتك ، ولن يستطيع أحد أن يطهو لك الأرز والسمك مثلى . آه يا جدتى .... ليتنى أستطيع العودة الى أحضانك !

ولم أستطع التحكم فى نفسى .... فأجهشت بالبكاء .

وسألنى :

ـ ما بالك ... لماذا تبكين ؟

ونظرت إليه .... ومن خلال دموعى استطعت أن ألمح نظرة قاسية متعجبة فى عينيه ، زادت من خوفى ، وزادت من تعاستى ، وزادت من بكائى ، فلم أستطع الرد ، وبقيت على صمتى .

فقال بتهكم وهو يدير وجهه إلى الناحية الأخرى :

ـ يبدو أننى قد تزوجت من طفلة .

بعد حوالى نصف ساعة ، وصلت العربة إلى المدينه ، وتحدث السيد إلى منصور بالعربية ، فسار بنا إلى طريق جانبى ، وتوقف فى نهايته أمام أحد المنازل الصغيرة .

وهبط السيد عبد المجيد من العربه ، واختفى داخل البيت .

وبعد قليل التفت منصور إلى الخلف ، وكنت لا أزال أبكى ، وأخذ ينظر إلى فى شفقة بالغة ، وقال بعد تردد :

ـ ما بالك يا سيدة تيا ، لماذا تبكين .؟

فقلت من خلال دموعى :

ـ اننى أحب جدتى .

فقال مداعبا :

ـ وأنا أيضا أحب جدتى .... وأحب جدتك .

ولم أجب واستمريت فى البكاء ، وصمت قليلا ، وبدا حائرا ثم قال :

ـ اسمعى يا سيدتى ، لا تغضبى من السيد عبد المجيد ، ولا تخافى منه ، قد يبدو جافا أو قاسيا فى مظهره ، ولكنه فى الحقيقة طيب القلب ، لطيف المعشر ، وسوف تعلمين ذلك مع الأيام . أما بالنسبة لجدتك فتستطيعين رؤيتها متى أردت . إن القرية لا تبعد كثيرا كما ترين ، وفى أى يوم ، وفى أى ساعة تودين الذهاب إليها ستجديننى رهن اشارتك . فقط أرجوك أن تكفّى عن البكاء ....

.. يجب أن تكونى سعيدة ، هل نسيت أنك عروس فى يوم زفافها . هيا ... هيا بالله عليك كفى عن البكاء ، صدقينى سوف تكونين سعيدة هنا .

كان يتكلم بصدق ، وبرقة بالغة ، أدخلت الطمأنينة الى قلبى ، فهدأت نفسى ، وجففت دموعى ، ونظرت إليه ممتنة ، فابتسم لى فى مودة ، ثم استدار واعتـدل فى مقعده .

لم تمض عشر دقائق إلا وكان السيد عبد المجيد قد عاد ، وانطلقت بنا العربة مرة أخرى .

الفصل السابع

كنت أنظر إليه
كالمشدوهة .. فلم
أستطع الرد ، واندفعت
من أمامه وأسرعت
إلى غرفتي ،
وارتميت فوق فراشي ،
أبكي بحرقة
قلب خاب أمله ..



كان المنزل الذى نسكنه قد بنى من الحجر ، ويتكون من طابق واحد ، وله حديقة صغيرة ، وسقف منحدر مثل باقى البيوت فى المدينة والقرية ، لكثرة الأمطار كما قلت لك .

لم تمض أيام كثيرة ، إلا وكنت قد اعتدت حياتى الجديدة ، فقد أحببت بيتى من أول لحظة ، فلم أكن أحلم بالعيش فى بيت مثله . وبالتدريج زايلتنى الرهبة التى كنت أشعر بها من السيد عبد المجيد ، ولا أدرى كيف ولماذا أحببته ..

- نعم يا ابنتى .. لقد أحببت أباك ، ولم أدر لماذا أحببته وتعلقت به إلى هذه الدرجة .

حقا لم يكن يسىء معاملتى ، ولكنه أيضا لم يكن يحسن معاملتى . لم يكن يشعر بوجودى فى حياته ، ولم أكن أعنى شيئا بالنسبة له . وتأكدت مع الأيام ، أنه ما تزوجنى إلا ليجد خادمة صغيرة ، جميلة ومطيعة لبيته .

ولكننى لم أيأس أبدا ، لم أيأس ولم أفقد الأمل فى أن أستحوذ على قلبه فى يوم من الأيام..

وتفانيت فى رعايته ، وخدمته ، وطاعته . أصبح محورا لحياتى وتفكيرى ، بذلت كل ما بوسعى لأحصل على محبته ، ولأشعره بوجودى ، أو على الأقل لأحوز على رضاه . ولكن لم يكن هناك وقت كاف لأقترب منه ، فقليلا ما كان يجلس بمفرده .

كان البيت لا يكاد يخلو من الزائرين ، ومئات من الراغبين فى الحج والعمرة طوال النهار ويمتلىء المكان بالأحاديث والمواعظ ، وبدعوات وأسئلة لا تنتهى ، وشراب

وطعام وموائد ممدودة طوال الوقت .

وفى المساء ، وبعد أن ينصرف الجميع ، يجلس مع منصور يتبادلان الأحاديث بالعربية ، فلا أفهم منها شيئا ، وأجلس بينهما صماء خرساء ، وكأنى قطعة من أثاث الغرفة .

كان السيد يحب منصور ويأنس لوجوده لدرجة جعلتنى أشعر بالغيرة منه ، ولكننى لم أكرهه أو أحقد عليه قط ، بل على العكس من ذلك ، فما حملت له يوما الا كل إعزاز ومحبة ، فما رأيت فى حياتى إنسانا رقيق القلب لطيف المعشر مثل هذا الرجل .

كان منصور أسمر البشرة ، نحيفا طويل القامة ، مع قليل من الانحناء وكان يعرج قليلا فى مشيته . كانت أنفه مستقيمة وله أسنان بارزة قليلا وشارب صغير ، ولكننى أعتقد أن أهم صفة فيه هى تلك النظرة الوديعة الحانية التى كانت تطل من عينيه ..

كان يخلص للسيد عبد المجيد كل الاخلاص ، ويطيعه كل الطاعة ، ولا يعصى له أمرا ، ولا يرفع صوته أمامه ، فقد عمل فى خدمته منذ أن كان فى التاسعة من عمره ، وكان يتيما ، ولم يكن له أقارب ، فكفله السيد وأحسن معاملته ، وقربه إليه ، وجعله ساعده الأيمن فى جميع أعماله ، فحفظ له الجميل وأصبح تابعه الأمين .

وفى يوم،وبينما كان يهم بالانصراف ، اقتربت منه وسألته :

ـ منصور .. هل يمكنك أن تعلمنى العربية ؟

ـ فابتسم فى مودة وهو يقول :

ـ إننى فى خدمتك ياسيدة تيا .

ـ لن آخذ من وقتك الكثير ، فقط أرجو أن تعلمنى كل يوم عشر أو عشرين كلمة وسوف أدونها بلغتى حتى لا أنساها . لقد تعلمت القراءة والكتابة فى صغرى أرجوك أن تعلمنى العربية .. أرجوك . إن السيد كما تعلم يحب أن يتحدث بها ، فربما لو أنى تعلمتها ..

أقول ربما .. ربما استطعت أن أتقرب إليه .. أقصد أننى ربما ..

ـ لا تقولى شيئا ياسيدة تيا .. إننى أفهم جيدا ...

أفهم جيدا . لا تحملى هما ، سوف نبدأ من الغد ، وسوف تتعلمين سريعا ، اننى واثق من ذلك .

وابتسم وحيانى برقته المعهودة ... وانصرف .

وبالفعل تعلمت سريعا .

كنت أحفظ الكلمات والجمل ، وأرددها بينى وبين نفسى طوال الوقت . لم يكن الأمر سهلا فى البداية بالطبع ووجدت بعض الصعوبة وخصوصا فى نطق الكلمات ، ولم تكد تمضى أسابيع قليلة إلا وكنت قد تقدمت كثيرا لدرجة أثارت إعجاب منصور . وبمرور الوقت أصبحت أفهم تقريبا كل ما يقال أمامى ، وبدأت أخرج من دائرة الصمت التى كنت أعيش فيها .

ولكن ما الفائدة ... ما الفائدة يا ابنتى ؟ ... فبعد كل ما فعلت ، لم أستطع أن أقترب حتى خطوة واحدة من أبيك .

وأصابنى إحساس دائم بالوحدة ، والتعاسة ، وخيبة الأمل..

وفجأة .... أحسست بنبض الحياة فى أحشائى .

وكأنما أراد الله أن ينقذنى من شقائى ووحدتى .

كنت يومها مستلقية على ظهرى ، أفكر فى نفسى ، وأشعر بكآبة وبوحشة شديدة .

وبينما أنا على هذه الحال ، أحسست بشىء أشبه بنبضة قلب .

وتعجبت .... ولم أعرف ما هو ، وظننت أننى ربما قد أخطأت . ولكن لم تكد تمضى دقائق الا وأحسست بها مرة أخرى .

ولم أصدق نفسى ......

نبضة قلب ... ! نبضة قلب فى أحشائى ، كيف يمكن أن يكون هذا ، هل من

الممكن أن يكون لى قلبان وأنا لا أدرى ، وكيف لم أشعر به قبل الآن . أم هو قلب انسان آخر يكمن فى داخلى ...... ؟ !

يا إلهى .... كيف لم أفهم قبل الآن ... كيف ياربى .. هل هذا معقول ، هل سيكون لى طفل ، هل سأصبح أما .... أنا أصبح أما ؟ !

إنها أكبر أمنية فى حياتى ، أن يكون لى طفل ، قطعة منى ، أحبه ويحبنى ، أحمله بين يدى وأضمه إلى صدرى ، وأقبله ، آه يا طفلى العزيز ... كم أنا فى شوق إليك .. سوف أعلمه الدين الاسلامى . والقرآن الكريم وسيصبح إنسانا عظيما . وسوف أطلق عليه اسم إسلام ... سواء كان ذكرا أم أنثى .

كم أنا سعيدة ، الآن سأصبح زوجة حقيقة ، سوف أقترب منه ألف خطوة ، وسوف أرتبط به إلى الأبد ، وسيحبنى ، نعم لابد وأن يحبنى ، كيف لا وأنا أم أطفاله .

عندما أخبره لابد وأنه سيجن من شدة الفرح ....

وقفزت من مكانى وأسرعت إلى غرفته .

كان منصور قد انصرف لتوه ، وبقى هو وحيدا يقرأ كتابا بين يديه .

ووقفت حائرة لا أدرى ما أقول ، وقلبى يخفق من فرط سعادتى .

ويبدو أنه أحس بوجودى ، فسألنى دون أن يرفع عينيه عن الكتاب ، أو يلتفت إلى ناحيتى :

- ماذا تريدين .. هل هناك شيء فى الأمر ؟

- واقتربت منه ، ووقفت خلفه ، وقلت فى اضطراب وخجل شديد :

- سيدى ... أظن أننى سوف ألد طفلا بعد أشهر قليلة .

ولكنه ظل صامتا ، ولم يبد حراكا ، وظننت أنه لم يسمعنى ، فقلت :

- سيدى ... كنت أقول أننى .....

فقاطعنى قائلا :

ـ أنك ستلدين طفلا بعد أشهر قليله ، لقد سمعت ، وما الغريب فى الأمر ، هل أنت متعبة ، هل تودَين الذهاب الى طبيب ، أم تريدين خادمة لتساعدك فى أمور البيت ؟

واستدار الى ناحيتى وأخذ يتطلع الى .

ـ لماذا تنظرين إلى هكذا .... لماذا لا تجيبين .... هل تريدين خادمة لتساعدك فى أمور البيت .. ؟

كنت أنظر إليه كالمشدوهة .... فلم أستطع الرد .

واندفعت من أمامه ، وأسرعت إلى غرفتى ، وارتميت على فراشى ، أبكى بحرقة قلب خاب أمله .

- آه يا اسلام يا حبيبتى .... قطعة أنت من قلبى ومن روحى ، لكم أحبك يا بنيتى ، لكم أحبك يا صغيرتى .

عندما سمعت صوتك أول مرة نسيت نفسى ، ونسيت آلامى واحتضنتك ، بكل ما فى قلبى من حب احببتك ، بكل ما فى كيانى من لهفة وشوق إليك احتضنتك ...

كنت تصرخين .... بمجرد أن أخرجوك من داخلى أخذت تصرخين فى فزع شديد ، وكأنك ترفضين الخروج إلى هذا العالم الموحش !!

فأخذتك بين أحضانى وضممتك إلى صدرى ، فهدأ قلبك وسكنت نفسك ، ونمت مستسلمة بين أحضانى كالملاك الصغير ، وكأنك أحسست بالحنان الدافق والحب الذى أحمله فى أعماقى إليك..

آه يا بنيتى الحبيبة ....

منذ أن رأيت وجهك ، بل منذ أن أحسست بك تنبضين فى داخلى ... أحببتك ، ولم أحب أحدا بقدر ما أحببتك .

كنت لا أمل أبدا من التطلع إلى وجهك والنظر إلى عينيك وسماع صوتك وصرخاتك . وعندما تنامين ، كنت أضمك إلى صدرى ، فأشعر بأنفاسك الصغيرة على وجهى ، فتغمرنى سعادة لا حدود لها . كنت أبكى لبكائك ، وأفرح لفرحك ، وأظل أتحدث إليك وأناجيك طوال ليلى ونهارى ، ولا يطمئن قلبى إلا وأنت بين أحضانى .

كنت طفلة جميلة ، لم أر فى حياتى طفلة أجمل منك ،

كنت أزهو بك بينى وبين نفسى ، وأزهو بك أمام الناس .

وكنت أصحبك معى إلى الخارج دائما ، إما لقضاء حاجة أو للنزهة ، فأجد لذة كبيرة وأنا أرى الاعجاب بك يملأ العيون من حولى . وأتركك لتلعبى قليلا مع الأطفال فلا أرى أحدا يدانيك براءة وجمالا .

ومرت الأيام يا حبيبتى ، ومرت السنون ولم أشعر بها ، ملأت حياتى وفـراغ نفسى سعادة ، فلم أعد أشعر إلا بك ، ولا أعيش إلا من أجلك .

وفى يوم عدت إلى البيت وأنا أحملك بين ذراعى وقد غالبك النعاس . وما أن دخلت حتى سمعت ضجة آتية من غرفة أبيك ، فوضعتك فى فراشك سريعا ، وذهبت لأستطلع الأمر .

وما أن اقتربت من الغرفة حتى سمعت منصور يتكلم فى حرقة ويقول :

ـ ولكن ماذنب المسكينة .... لماذا تزوجتها إذا ... كيف تتركها هكذا بعد كل هذه السنين ؟ !

وتواريت سريعا .... وأخذت أتسمع إلى الحديث ، وقلبى يخفق بعنف . وصاح السيد عبد المجيد :

ـ قلت لك مائة مرة أننى ما أتيت إلى هذه البلاد الا من أجل العمل وإرسال الحجاج ، ولم آت لأنشىء أسرة وبيتا جديدا ، لقد آن لى أن أعود مرة أخرى ..

ـ ولكنك تزوجتها .... حدث وتزوجتها ، إنها مسئولة منك أمام الله .

وهل كنت تريد منى أن أظل طوال هذه المدة بدون زوجة ....

بدون امرأة ترعى شؤونى وشؤون البيت ؟

ـ إذا اصحبها معك .

ـ لا أستطيع ذلك . تعرف أنى متزوج من ابنة خالى ، ولى منها ولد قارب سن الشباب .

ـ وماذا فى ذلك ، لقد أحل الله لك مثنى وثلاث ورباع ؟

ـ قلت لك لا أستطيع ، أن زوجتى لن ترضى أبدا بهذا الوضع ، ولن يرضى خالى ، ولن يرضى باقى أفراد العائلة حتى ولو رضوا وصحبتها معى ماذا سيقول الناس عندما يعرفون أن زوجة السيد عبد المجيد إمرأة فقيرة كانت تعمل خادمة فى مقهى ، وأن أباها كان سكيرا لا يفيق إلى نفسه ؟ !

ـ وماذا عن الطفلة ابنتك ..... كيف تتركها بدون عائل ، وبدون أب يرعاها ؟

ـ سوف أصحبها معى فى الغالب ..

وأحسست بشيء أشبه بطعنة سكين فى صدرى .

وذعر منصور وصاح فى غضب شديد :

ـ تأخذ منها ابنتها ، تنتزعها من بين أحضانها ، إن هذا لا يرضى الله ولا الرسول إنه حرام .... حرام . هل تريد أن تقتل هذه المسكينه ؟ !

ـ لن يحدث لها شيء ، سوف تعتاد فراق ابنتها ، وتعود إلى حياتها الأولى مع أبيها وجدتها ، وسوف أترك لها ما يكفيها من مال ، إنها صلبة قوية الاحتمال .

ـ كانت صلبة قوية الاحتمال قبل أن تتعرف عليك وقبل أن تتزوجها ، كانت صلبة قوية الاحتمال وطفلتها بين أحضانها ، ولكن عندما تطعنها من الخلف دون رحمة ، عندما تنتزع قلبها من بين ضلوعهاوتتركها تحترق لهفة على طفلتها ، ستصبح هشة ضعيفة لاحول لها ولا قوة . أقسم أنك ستقتلها .....

ستقتلها ....

ـ أغلق فمك وكف عن هذا ، لا أحب أن تتدخل فيما لا يعنيك ... هل تسمع ؟

ـ ألا تخاف الله فى هذه المرأة المسكينة ، ألا تخاف من غضب الله عليك ، كيف تفعل هذا وأنت مسلم تقرأ القرآن وتعرف أصول دينك ، هل هذا هو الإسلام فى نظركَ ... ؟ !

لا والله ، إن الاسلام برىء منك ومن فعلتك .

وصاح السيد :

ـ منصور ..... لقد تعديت الحدود ....

ـ وأنت .. ألم تتعد الحدود ؟ ... لم أكن أعلم أنك معدوم الضمير إلى هذه الدرجة .

فما كان من أبيك الا أن صفعه على وجهه بقوة وصاح فيه :

ـ أخرج من هنا ... أخرج من بيتى .... لا أريد أن أراك هنا مرة أخرى ..

ـ نعم سأخرج ولن أعود حتى لا أرى هذه المأساة تحدث أمام عينى ولا أستطيع أن أفعل شيئا . ولكن تذكر جيدا أن الله يراك ، ولا بد ان ينتقم لهذه المسكينه فى يوم قريب .

وصاح أبوك فى جنون :

ـ أخرج .... أخرج من بيتى أيها الأعرج اللعين .

واندفع منصور خارجا من الغرفة فاصطدم بى ، وشهق من شدة المفاجأة ، وأخذ يحملق فى وجهى فاغرا فمه ، وللحظات لم يبد حراكا . وبعد قليل أرخى وجهه إلى الأرض ثم نظر إلى وقد امتلأت عيناه بالدموع ، ومالبث أن انطلق مسرعا إلى خارج البيت .

ولم يغمض لى جفن ليلتها ......

جلست فى فراشى واحتضنتك إلى صدرى فى لهفة وخوف ، وأنا لا أصدق نفسى .

هل سيبعدونك عنى يا اسلام ... ؟ هل سينتزعونك من بين أحضانى ؟ وكيف أعيش بعد ذلك . ولماذا أعيش .... ؟ .

كيف أعيش دون أن أراك أمامى ، وأشعر بأنفاسك فوق وجهى ؟

كيف أعيش دون أن أضمك إلى صدرى وأحملك بين ذراعى ؟ ....

ولماذا أعيش ... لماذا أعيش وأنت بعيدة عنى ، وأنا لا أعيش إلا لأجلك ومن أجلك ؟

ماذا أفعل يا حبيبتى .... هل أحملك ونرحل سويا عن هذا البيت ، ولكن إلى أين ؟ فما من ملجأ ولا من عائل ولا معين . إننى أرتضى العيش فى الجحيم إلى جوارك ، ولكنى لا أرضى لك حياة ذليلة ، لا أرضى أبدا ياصغيرتى أن أراك تعيشين شريرة متسولة .

وظللت أبكى فى لوعة حتى الصباح .

وقررت ألا أدعك تغيبين عن ناظرى لحظة واحدة .

لن أدع له الفرصة أن يأخذك بعيدا عنى . فليرحل هو إن شاء .

ولكن إذا أصر على رحيلك معه ، فلن تكونى وحدك ، سوف أذهب معه ، فليقل

للناس إنى أعمل خادمة عنده ، فليقل عنى ماشاء ، ولكن المهم أن أبقى إلى جوارك .

وطوال الأيام والشهور التاليه ، التصقت بك التصاقا ، ولم أفترق عنك ولو للحظة واحدة ، حتى أثناء النوم ، كنت أحتويك بين ذراعى ، وأضمك إلى صدرى طوال الليل ، حتى لا أدع له الفرصة أن يختطفك فى غفلة منى ، ولا أدرى إن كان أبوك قد لا حظ ماطرأ على أو شك فى تصرفاتى أم لا ، ولكن المهم أنه تغير كثيرا من ناحيتى ، تغير كثيرا لدرجة أثارت شكوكى فى بادىء الأمر .

أصبح رقيقا فى معاملتى ، يتودد إلى ، ويسأل عنى ، ويبتسم فى وجهى ، ويطلب منى أن أجلس معه ويتحدث إلى ..

وذهب معى أكثر من مرة للنزهة وزيارة جدتى فى القرية .

كان يشترى لى الكثير من الهدايا الثمينة ....

فى مرة أحضر لى سوارا ذهبيا ثقيلا ، وفى مرة أخرى قرطا ماسيا وعقدا من اللؤلؤ .

وبمرور الزمن بدأت أطمئن إليه ، وظننت أن حديث منصور معه قد أثر فيه فأفاق إلى نفسه وأعاد إليه ضميره ، فوثقت به ......

نعم يا ابنتى ، لسذاجتى وغبائى وثقت فيه ....

فحكمت على نفسى بالعذاب والحرمان منك خمسة عشر عاما .

حاولت كثيرا أن أمحو من ذاكرتى صورة هذا اليوم الأغبر فلم أستطع .

كنت يومها منهمكة فى أداء بعض أعمال المنزل ، وأنت فى فراشك مستغرقة فى النوم .

ودخل أبوك الغرفة فجأة ، وقال فى اضطراب شديد :

ـ تيا .... لقد أرسل سوهارتو مرسولا ليخبرنى أن جدتك مريضة جدا .

وأحسست بقلق شديد وسألته :

ـ هل حدث لها مكروه .... أخبرنى بالله عليك ؟

فقال بصوت متردد زاد من قلقى :

ـ لا شيء ... لاشيء ... لا أدرى .. يمكنك الذهاب لرؤيتها إن أردت .

وتأكدت أن شيئا ما قد حدث ، وأحسست بالخوف على جدتى . وبسرعة بدلت ملابسى ، ونظرت إلى وجهك الحبيب ، كنت نائمة كالملاك الصغير ، ولا أدرى لماذا أحسست بلهفة شديدة عليك انقبض لها صدرى ، ففكرت جديا أن أحملك من فراشك وأصحبك معى ، ولكنى رأيت أنه من الأفضل بقاءك بعيدا فى مثل هذه الظروف .

وليتنى ماتركتك ليلتها ... ليتنى اصطحبتك معى ...

لو كنت أعلم .... لو كنت أعلم بما سيحدث ، لو كنت أعلم أن هذه هى المرة الأخيرة التى أراك فيها ، لما تركتك أبدا ... أبداً !! ...

انطلقت بالعربة فى طريقى إلى القرية ، ولهفتى على جدتى قد أنستنى كل شيء حتى نفسى . وأخذت أدعو الله ألا يكون هناك مكروه قد وقع لها ، وألا تكون ماتت قبل أن أراها للمرة الأخيرة .

وما أن وصلت الى القرية حتى أخذت طريقى عدوا إلى البيت ، وأنا أحاول أن أتمالك نفسى ومشاعرى .

كان الصمت يخيم على المكان ، ولكنى لم أفقد الأمل وأسرعت إلى الداخل .

كانت جدتى تجلس هناك فى فراشها وقد أمسكت بسبحتها الصغيرة . لم تتغير ، ولم يتغير فيها شيء ، كانت كما هى منذ رأتها عيناى منذ عشرين عاما .

ولم أصدق نفسى ، واندفعت اليها أقبلها فى شوق شديد . وأخذت أنظر اليها وأتأملها فى سعادة ، فقالت معاتبة :

ـ أيتها الشقية ، هل اشتقت إلىّ حقا ، لماذا تغيبت إذا طوال هذه المدة ؟ لقد مضت أكثر من ثلاثة أسابيع دون أن أراك . ؟

ـ أوه ياجدتى ، لا وقت للعتاب . حمدا لله أنك بخير ، كدت أموت لهفة عليك . لقد أرسل سوهارتو رسولا أخبر السيد أنك مريضه .

ـ مريضة ؟ ! .. لا والله ، إننى بخير والحمد لله . ولا أظن أن سوهارتو قد أرسل

احدا اليكم . لقد زارتنى زوجته البارحة لتطمئن على ، إنهم يعلمون جيدا أننى بخير .

وصمتت قليلا ثم قالت مداعبة وهى تبتسم :

ـ إن سوهارتو لم يرسل أحدا ، ولكن يبدو أن زوجك أراد أن يبعدك عن البيت بعض الوقت ، يبدو أنه ينوى الزواج من أخرى أصغر منك سنا .

وأفزعتنى الكلمة .... وأحسست بانقباض فى صدرى يبعدنى عن البيت بعض الوقت .... يبعدنى عن البيت ، هل يمكن أن يكون قد قرر الرحيل .... وإسلام .. إسلام ... هل يمكن أن يكون قد ... ؟؟

وصرخت من أعماقى واندفعت إلى الطريق .

لا أدرى كيف استطعت العودة الى البيت .....

اندفعت إلى الداخل ، واخذت أبحث عنك كالمجنونة فى كل مكان فلم أجدك .

وأحسست بقلبى يكاد ينخلع من شدة اللهفة والفزع .

وانطلقت إلى الشارع ..... أخذت أعدو إلى بيت تنكو دمنهوجى وأنا لا أكاد أرى ما أمامى ......

كان يقف أمام بيته يتحدث إلى بعض الرجال .

واندفعت إليه ، وأمسكت به بكلتا يدى ، وقلت وأنا ألهث من شدة القلق والتعب :

ـ أين ابنتى .... أين ابنتى ...... ؟

ولم يجبنى الرجل وبدا حزينا حائراً لا يدرى ما يقول ..

ولم أتمالك نفسى .... ولم أحتمل أكثر من هذا ، فانكفأت على الأرض أقبل قدميه :

ـ أرجوك ياسيدى .... أتوسل اليك .. أين ابنتى .. أين ابنتى ...... ؟

وانحنى الرجل إلى جانبى ، وأخذ يربت على كتفى وقال :

ـ تيا .... يجب أن تتمالكى نفسك قليلا ، لقد حاولت كثيرا أن أثنيه عن عزمه ،

حاولت كثيرا أن أقنعه بأن يأخذك معه فلم أستطع . لقد رحل إلى بلاده بالطائرة منذ نصف ساعة .

وسألته فى لهفة :

ـ وابنتى .... ابنتى ...... ؟

فقال فى حزن شديد :

ـ لقد أخذها معه .

لا أدرى ماذا حدث لى .... كان هناك شيء يحترق ويتمزق بداخلى .

أخذت أجرى فى الشارع كالمجنونه ، أصرخ ، وأصرخ

وأصرخ من أعماقى وأنا أصيح .... يا الله ... يا الله .... يا الله !! ..

وتمزقت ملابسى ، وسالت الدماء من أنفى وأنا أمرغ وجهى ورأسى فى التراب .

لا أدرى لماذا لم أمت يومها ... لماذا لم أمت ، لماذا لم يأخذنى الله إلى جواره .

وأحسست بظلام يطبق على صدرى ، فأخذت أجرى وسط الطريق ، لا أرى ما أمامى ولا أشعر بما حولى .

كنت شاردة مذهولة ، فلم أنتبه الى سيارة مسرعة ، حملتنى أمتارا فى الهواء ......

ولم أعد أشعر بشيء .

قالت إسلام فى صوت قلق :

ـ آه يا أمى .... أخبرينى ، أرجوك ، هل كانت إصابتك شديدة ؟

ولكن المرأة لم تجب ، كانت تحملق فى الأرض ، وقد امتلأت عيناها بالدموع ، وأخذت تتمتم فى صوت حزين :

ـ لماذا لم أمت يومها ... ؟ ... لماذ لم يأخذنى الله إلى جواره ، لماذا .... لماذا ......

وضمتها الفتاة إلى صدرها وهى تقول :

ـ أمى ... لا تقولى هذا بالله عليك ، أما كنت تودين رؤيتى مرة أخرى ؟

ونظرت إليها المرأة فى حب ، وقالت وهى تقبلها :

ـ أننى لم أعش إلى الآن إلا لكى أراك . سامحينى يا ابنتى ، لقد تعذبت كثيرا

لفراقك ، وحاولت كثيرا أن أنسى هذا اليوم فلم أستطع .

وظلت الفتاة تحتضن أمها لفترة ... ثم عادت تسأل :

ـ أخبرينى يا أمى .. ماذا حدث بعد ذلك ؟

ـ عشت فى غيبوبة ثلاثة أيام متواصلة ، حتى فقد الأطباء الأمل فى شفائى . فقد أصبت بنزيف داخلى حاد ، وكسور فى الساق والذراع اليسرى والضلوع ، وفقدت طفلا لم أكن أعلم أنى أحمله بين أحشائى . كنت أقرب إلى الموت منى إلى الحياه .

جسد محطم .... ونفس محطمة .

كنت أصرخ طوال الليل والنهار من آلام جسدى ، وآلام نفسى ، حتى حار الأطباء فى أمرى .

ومكثت فى المستشفى حوالى ثلاثة أشهر لعلاج الكسور ، ثم نقلونى بعد ذلك إلى مصح للأمراض العصبيه .

وصمتت المرأة مرة أخرى .

بدت حزينة ، مرهقة من شدة الانفعال ، ثم قالت فى صوت واهن :

ـ إسلام ... يكفى هذا اليوم ، لا أستطيع الاستمرار فى الحديث ، سوف أخبرك غدا بكل شيء . ثم إن موعد عودتك للدراسة قد حان . هيا يا ابنتى عودى إلى فصلك ، لا أحب أن تهملى دراستك بسببى .

فقالت الفتاة وهى تستعد للنهوض :

ـ أمى ... أرجوك ... لا أحب أن أراك حزينة هكذا .

فقالت المرأة وهى تبتسم :

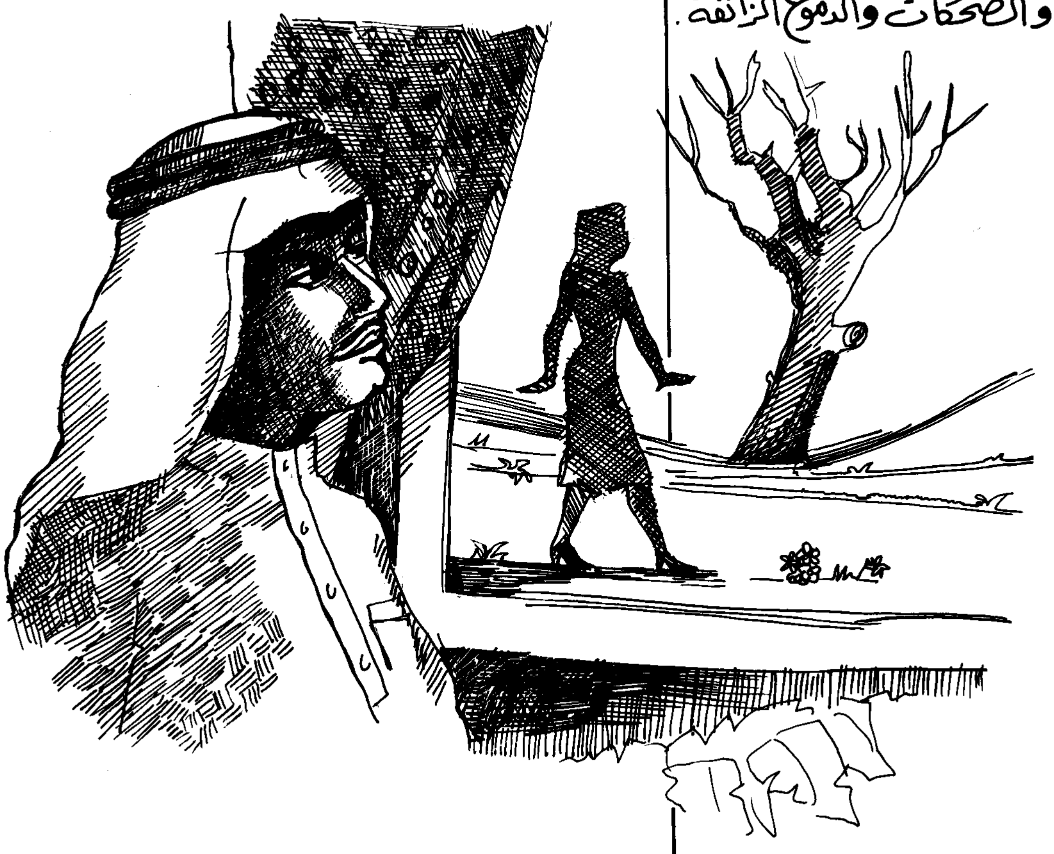
ـ وكيف يمكن أن أكون حزينة وأنت أمامى يا اسلام ؟ واحتضنتها فى حب بالغ ، ثم قالت وكأنها تذكرت شيئا :

– نسيت أن أسألك يا إسلام .... أين أبله نوال المديرة ، إننى لم أرها منذ ثلاثة أيام ؟

ـ لا أدرى يا أمى ، يقولون أنها بخير ، ولكن يبدو أن لديها ما يشغلها . سوف تحضر غدا على كل حال ، كونى مطمئنه .

الفصل الثامن

أحببتك لأنك
تملكين قلبًا صافيًا، ومرهفًا
ورقيقًا، في زمن
امتلأت فيه القلوب
بالأحقاد والقسوة
والشرور، وخدعتنا
فيه الكلمات،
والضحكات والدموع الزائفة.



ضجت المدرسة فى ذلك اليوم .... فقد عادت أبله نوال . نعم عادت ، ولكنها لم تعد كما كانت ، فقد تغيرت تماما .

وعندما دخلت لم تعرفها إسلام فى بادىء الأمر ، ثم أخذت تنظر إليها غير مصدقة ..

كانت تقف فى وسط الغرفة ، وقد التف حولها عدد كبيرمن المدرسات ، وبعض الطالبات ، وتجمع البعض الآخر عند الباب يتزاحمن ، ويتدافعن ، ويتطلعن إليها فى فضول شديد .

كان الجميع ينظرون إليها فى إعجاب مهنئين ، وقد امتلأت العيون بنظرات متسائلة .

وكانت هى تبتسم فى سعادة وتضحك .....

من يصدق ... أبله نوال المديرة تبتسم وتضحك ..

بدت جميله فى بساطة ، أنيقة على غير عادتها .

كانت ترتدى فستانا رقيقا أبيض اللون ، له أكمام قصيرة متسعة ، وشعرها ..... طوال هذه السنين كانت تشده إلى الخلف وتجمعه بغير عناية فوق رأسها ، وكأنها تحاول أن تبعده عنها أو أن تتخلص منه ، أما اليوم فقد بدا رائعا ، غزيرا متموجا حول وجهها وكتفيها ، وكانت لها غرة جميلة ، وقد تزينت بقرط صغير وعقد من اللؤلؤ ، وفى إصبع يدها اليمنى ، لمحت إسلام خاتم الخطبة ......

ونظرت إسلام إلى أمها متسائلة ، ثم قالت بصوت خافت :

ـ ما هذا الذى يحدث يا أمى .... هل ترين ما أرى ، هل هذه حقا أبله نوال ،

أكاد لا أعرفها ، انني سعيدة من أجلها يا أمى ، انني أحبها حقا ، ولكن كيف ....
كيف تغيرت إلى هذه الدرجة ، وكيف تغيرت بهذه السرعة ؟ !

لقد عقد قرانها بالأمس يا أمى ، هل تصدقين ..... أبله نوال ستتزوج ؟ ! لقد كان الجميع يعتقدون أنها لن تتزوج أبدا ، كانوا يقولون دائما أنه ليس هناك رجل عاقل فى هذا العالم يجرؤ على الزواج منها !

ونادتها نوال :

- اسلام .... كيف حالك ؟

وقامت الفتاة من فورها اليها وقبلتها مهنئة .

كيف حالك يا إسلام ، وكيف حال أمك ؟

- بخير والحمد الله . إننى عاتبة عليك ، لماذا لم تخبرينا من قبل ؟

وابتسمت نوال وقالت فى خجل :

- صدقينى لقد تم الأمر كله بسرعة ، لقد كان مفاجأة بالنسبة لى أنا ايضا .

- اننى سعيدة من أجلك .... انك تبدين فاتنة حقا .

فاحمر وجهها وقالت تصطنع الجد :

- هيا ياإسلام ... هيا إلى فصلك ، فستبدأ الدراسة بعد قليل .

وانتظمت الدراسة .... وهدأت الغرفة ، وجلست نوال إلى مكتبها تراجع بعض الأوراق . وما هى الا لحظات حتى شردت بعيدا ... بعيدا .

كانت تبدو وكأنها تعيش فى حلم لذيذ لا تريد أن تفيق منه .

ماذا حدث يانوال ..... وكيف تغيرت وتغيرت حياتك إلى هذه الدرجة ، أكل هذا من أجله .... ؟ !

وأخرجت صورة صغيرة من حقيبة يدها ، وابتسمت فى رقة وهى تنظر اليها ،

وأخذت تتأملها فى حب .

ياهذا الحبيب ... هدية السماء .... أرسله الله إلى لينقذنى ويبعث الحيـاة من جديد فى صحراء نفسى القاحله .

سنون طويلة مضت ، كانت تعيش خلالهـا كتمثـال جامـد لا حيـاة فيـه ، أو كانسان آلى يتكلم ويتحرك ويأكل ويصرخ ، ولكنه يخلو من كل إحساس وكل مشاعر .

كانت تحاول دائما أن تخفى حقيقة نفسها عن الناس ، حاولت كثيرا أن تقتل كل محبة وكل رقة فى داخلها ، حاولت كثيرا ... كثيرا . ولكن هل نجحت ، هل استطاعت بالفعل أن تجمد الاحاسيس وأن تقتل المشاعر ؟

أبدا ... أبدا ، لقد نجحت فى أن تخفيها ، نجحت فى أن تكتمها ، ولكنها لم تنجح فى أن تنتزعها وأن تلقى بها بعيدا ، لقد استطاعت أن تضع حاجزا وهميا بينها وبين الناس ، حاجزا يحميها منهم ومن غدرهم ومن شرورهم .

كات تعتبر دائما أن القسوة قوة ، وأن الرقة ضعف ، وكانت تخاف من ضعفها ، وتخاف أن يكتشفه الناس فتصبح لقمة سائغة فى أفواههم .

وكثيرا ما كانت تضيق ذرعا بما يجيش فى نفسها ، كانـت تضيـق بعواطفهـا وأحاسيسها ، وتشعر برغبة شديدة فى أن تبكى وأن تصيح ، وأن تحتضن أمها ، وأن تحتمى من خوفها بين ذراعيها ، ولكنها كانت تمنع نفسها بكل قوتها ، فاذا أحست أن إرادتها ستخذلها أسرعت إلى فراشها لتختبىء فيه .

يا إلهى .... كم كانت تحب أباها ، كانت تحبه من أعماق قلبها ، ولهذا كان تعتبره دائما أكبر نقطة ضعف فيها . كان رقيقا معها ، رقيقا إلى أبعد الحدود . كان يبتسم لها ويحنو عليها ، ويقبلها ، ويحميها من سلاطة أمها ، وأذى إخوتها الذين ضاقوا بها وبجفائها وجمودها ، وحاولوا كثيرا أن يقتحموا الحاجز الذى وضعته حول

نفسها ، ربما كان ذلك محبة لها ومحاولة فى التقرب إليها ، ولكنها اعتبرته هجوما على أمنها ، زاد من خوفها ، وزاد من عزلتها وقوقعتها .

أما أبوها فلم يحاول أبدا أن يفرض نفسه ، أو يعتدى على صمتها ووحدتها . كان يحبها من بعد ، ولكنها أحست به قريبا .... قريبا إليها ، وأحست أنه يفهمها ، وأنه الانسان الوحيد الذى يعرف ما بداخلها ، والإنسان الوحيد الذى استطاع أن يكشف الستار عن حقيقة نفسها .

كان يحبها حبا صادقا ، ولهذا أحبته ، ولهذا أيضا كانت تهرب منه ، ولا تجلس معه طويلا ، ولا تتحدث إليه إلا نادرا .

كانت لا تجرؤ على دخول غرفته إذا كان مريضا ، لم تكن تحتمل أن تراه على فراش المرض ، لم تكن تحتمل مطلقا .

ولم يفهم أحد حقيقة مشاعرها ، لم يفهم أحد ، حتى أمها لم تكف يوما عن توجيه اللوم إليها واتهامها بالقسوة والجمود .

فى إحدى المرات ظل أبوها مريضا عدة أيام متواصله ، لم يغادر فيها غرفته ، وأحست بشوق إليه لم تستطع مقاومته ، فاندفعت إلى غرفته وقلبها يخفق ، ووقفت مترددة قبل أن تدخل .

جلست إلى جواره على حافة السرير صامته دون أن تنظر اليه .

كان كل شيء بداخلها يرتجف من شدة الانفعال ، وأحست برغبة شديدة فى البكاء .

وصاحت أمها فى غضب ، :

ـ نوال .... هل أنت بلهاء أم خرساء ، ألا تقولين شيئا ؟

يا لقسوتك !! ثلاثة أيام وأبوك مريض ولم تحاولى حتى أن ....

وأشار اليها أبوها بيده فى صوت واهن :

ـ كفى ..... كفى .

وحاولت أن تقول شيئا فلم تستطع ، وأحست أن دموعها ستسبق كلماتها فظلت على صمتها .

وأخيرا قال أبوها فى حنان بالغ ويده تربت على ركبتها :

ـ كيف حالك يانوال ؟ ... لقد اشتقت إليك كثيرا .

ولم تحتمل ، وأحست أن صمتها سيخذلها ، وبسرعة اندفعت إلى غرفتها ، واندست فى فراشها ، وتركت لدموعها العنان

كانت أختاها سعاد وكوثر تشاركانها الغرفة . كلتاهما كانت أصغر منها فى السن . كانت تحبهما كثيرا ، وبالذات هذه الصغيرة الشقية كوثر . لم تكن تمل من ملاحظتها ، والتطلع إليها طوال الوقت دون أن تشعر بها .

كانت منطلقة ، مرحة ، خفيفة الظل إلى حد بعيد ، تمتلىء بالحيوية وحب الحياة ، لا تكف لحظة عن الحركه ، ولا عن الضحك والمشاغبة . لم تكن جميلة بقدر ما كانت جذابة ، تعرف كيف تلفت الأنظار إليها ، وتثير الإعجاب من حولها ، تثق بنفسها وجمالها ثقة عجيبة .

كانت نوال تحب أن تراقبها خفية عندما تجلس للتزين أمام المرآة أو لتصفيف شعرها . ساعات طويله تقضيها فى وضع المساحيق المختلفة تحاول أن تكتشف طريقة جديده ، تبرز بها جمالا أو تخفى بها عيوبا . وبين حين وآخر تبتعد قليلا وتتأمل نفسها فى إعجاب شديد ، وأحيانا تصرخ من شدة الانفعال وتصيح فى سعادة :

ـ ما كل هذا الجمال وهذه الفتنة يا كوثر ... ؟! .

ـ نوال .... أنظرى .... هل رأيت فى هذا العالم فتاة مثلى ، أنظرى إلى دقيقة واحدة يا أختى الحبيبة ، سوف ترين تأثير جمالى عليك ، سوف تفقدين اتزانك حتما ، وتتخلصين من وقارك ، وتندفعين إلى وتحتضنينى هكذا .... وتقبلينني هكذا ......

وتندفع إليها وتحتضنها وتقبلها فى مرح قبلات سريعة ، ونوال تدفعها برفق بعيدا عنها وهى تحاول جاهدة أن تكتم الضحك .

وتزوجت سعاد ، وتزوجت كوثر ، وخلت الغرفة ، وخلا البيت الا منها ومن أمها وأبيها .

أحست بوحشة غريبة ووحدة قاتلة لرحيلها ، لدرجة جعلتها ولأول مرة فى حياتها تفكر فى نفسها ومستقبلها ، وفى سنى عمرها التى تمر سريعا فى هذا البيت .

طوال هذه السنين لم يتقدم أحد لخطبتها ، لم يتقدم رجل واحد ... واحد فقط للزواج منها . كانت تبدو فى ظاهرها وكأنها لا تهتم لذلك أبدا ، ولا تهتم للقلق الواضح فى عينى أمها ، وتلميحاتها ودعواتها المستمره بأن يرزقها الله « ابن الحلال » ولكنها فى قرارة نفسها ، كانت تتمنى أن يتقدم أى شخص ليطلب يدها ، ويبدى رغبة فى الزواج منها والارتباط بها ، حتى ولو كان غير مناسب لها ، سترفضه حتما ، ولكنها ستشعر أنها مرغوبة ، وأن هناك من يتمنى أن تكون زوجة له ، وأما لأطفاله .

إن مشاعر الأنثى لم تمت فى داخلها ، أبدا على العكس تماما ، لقد كانت تحمل بداخلها امرأة ، امرأة بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان ، امرأة تحلم ببيت هادىء ، ورجل قوى تحتمى به ، وأطفال يشبعون أمومتها وتهيم بهم حبا .

كانت تعلم أنها لاتفتقر إلى الجمال ، ولكنها لم تحاول أبدا أن تبرزه أو تعتنى به ، بل تعمدت إهماله وإخفاءه ، وتعمدت أن تكتسب دائما طابعا خشنا فى مظهرها .

ومرت عدة سنوات ، نجحت خلالها فى دراستها ، وتقدمت فى عملها ، واكتسبت احترام رؤسائها واحترام الناس ، ولكنها لم تكتسب محبتهم . عاشت فى عزلة دائمة حتى عن أمها وأبيها ، فلم تكن تتبادل معهما الحديث إلا لأمر ضرورى ، وتقضى أغلب وقتها وحيدة فى غرفتها .

ومرت الأيام على نفس الوتيرة ، حتى ضاقت ذرعا بحياتها ، وأظلمت الدنيا فى عينيها .

ومنذ حوالى عشرة أيام ، كانت تجلس كعادتها بمفردها ، تتصفح بعض المجلات ، وتشعر بكآبة شديدة .

دخلت أمها الغرفة ، وكانت عيناها تنطقان بالسعادة ، وجلست إلى جوارها وقالت :

ـ نوال .... أريد أن أتحدث معك قليلا ، هناك خبر سيفرحك كثيرا .

ولم تلتفت نوال اليها وقالت بغير اكتراث :

ـ تكلمى انى منصته .

فناولتها أمها صورة صغيرة وهى تقول :

ـ أنظرى إلى هذا الشاب .... أخبرينى مارأيك فيه ، أليس وسيما بالله عليك ؟ .

ونظرت نوال الى أمها متسائلة ، ثم نظرت الى الصورة سريعا وقالت :

ـ أخبرينى أنت أولا ماذا هنالك ، ومادخلى أنا إن كان وسيما أم لا . ؟

فقالت أمها فى سعادة :

ـ لقد تقدم لخطبتك من أبيك ، إن اسمه سامى عز الدين ويعمل مهندسا فى البلدية ، وهو ناجح جدا فى عمله ، وسيذهب غدا لمقابلة أبيك فى مقر عمله ليحدد معه موعدا لعقد القران .

إنه شاب ممتاز .... ممتاز يانوال . إنه متمسك بك إلى حد بعيد ، ويتعجل الزواج .

ولم تصدق نوال أذنيها ، وأحست بدوار مفاجىء ، وحاولت أن تتمالك نفسها ، وقالت فى هدوء :

ـ ولم العجله ، إنه لم يرنى بعد ، ربما غير رأيه عند ذلك . ؟

ـ لقد طلب منه أبوك الحضور لرؤيتك ، ولكنه أصر على رأيه وقال أن المهم لديه أن توافقى أنت على الزواج منه ، وأنه يكفيه رؤيتك بعد عقد القران .

ـ إننى سعيدة من أجلك يا ابنتى ، إن الأمر لا يستحق منك أى تفكير ، لقد وافق أبوك وانتهى الأمر ، فقط أرجو منك الاهتمام بصحتك ومظهرك قليلا .

وقبلتها وقالت وهى تنهض :

ـ احتفظى بالصورة ، سوف آخذها منك فيا بعد .

وظلت نوال للحظات كالمذهولة ، جامدة لا تبدى حراكا ..... ثم اندفعت الى باب الغرفة فأغلقته جيدا من الداخل ، واندفعت مرة أخرى إلى سريرها ، والتقطت الصورة ، وأضاءت مصباحا إلى جانبها ، وأخذت تحملق فيها غير مصدقة ، ثم شهقت فى سعادة :

ـآه يا أمى !! ... إنه بالفعل وسيم إلى حد كبير .

وأحست بقلبها يرقص بين ضلوعها ، وشعرت أنها تحبه بكل كيانها . وأطفأت المصباح واستلقت على السرير ، وعادت وأشعلته مرة أخرى ، وأخذت تتطلع إلى الصورة ، ثم أطفأت المصباح وأسرعت الى النافذة ، وأزاحت الستار وأخذت تتأمل الصورة فى ضوء النهار ، ثم عادت وأغلقت الستار ، واندفعت إلى سريرها ، واندست فى فراشها وهى تحاول أن تستعيد هدوءها وأن تتمالك نفسها .

ماذا حدث لى ... ؟ هل فقدت العقل ....؟ هل جننت ؟ كيف فقدت اتزانى بهذه السرعة وإلى هذه الدرجة ؟

إننى لم أره بعد ولم يرنى ، هل أحببت صورة .... مجرد صورة .. ؟ ! ..

واعتدلت فى فراشها وأخذت تتأمله مرة أخرى وقلبها يخفق بعنف .

ولكنه أحبنى ... أحبنى دون أن يرانى ، أحبنى حبا حقيقيا عميقا ، وإلا لما فكر فى الزواج منى والارتباط بى ، فكيف لاأحبه .... كيف ..؟

ونظرت الى الصورة فى وله شديد :

آه أيها الحبيب ، هل استحق منك كل هذا ، ألن تغير رأيك بعد أن ترانى ، ألن تتحول مشاعرك بعيدا عنى . ؟

وقفزت من مكانها وجلست أمام المرآة تتطلع الى نفسها :

ما هذا يانوال .... وجه شاحب ، وعينان ذابلتان ، وشعر مهمل . ماذنب هذا المسكين ليراك على هذه الصورة .

يجب أن تعتنى بمظهرك ، لابد وأن تكونى جميله ..... من أجله ، ألا يستحق أن تفعلى أى شيء من أجله .

وعندما يحضر ... ماذا سأرتدى أمامه .... ؟

واندفعت إلى خزانة ملابسها وفتحتها وأخذت تتطلع اليها ......

يا إلهى ... إن أفضل ثوب عندى أبدو فيه « كشوال البطاطس » . .

هيا يانوال ..... لا تقفى مكتوفة اليدين .... ولاتجعليه يندم على محبته لك ، إفعلى أى شيء من أجله ....

من أجله يانوال .....

وفى الأيام التالية تغيرت أحوال الفتاة تماما .

كات تقضى معظم النهار تتجول فى الأسواق مع أختها كوثر . انتقت أجمل الملابس بأزهى الألوان ، واشترت حليا ومساحيقا لم تستعملها من قبل .

وفى المساء كانت تقضى معظم وقتها أمام المرآة تتأمل نفسها وتتزين ، وتحاول أن تبدو فى أجمل صوره .

وفى اليوم المحدد ....

بدت قلقة ، شاردة منذ الصباح ، سعيدة ... ولكن سعادتها كانت مشوبة بشيء من الخوف ، الخوف من أن يخيب أمله فيها ، والخوف من أن تفقد آخر أمل لها فى السعادة .

وعندما عادت فى المساء ، بعد أن أتمت زينتها وتصفيف شعرها ، دخلت إلى غرفتها سريعا وأغلقت الباب ، واستلقت على فراشها . كانت تشعر باضطراب شديد كلما أحست باقتراب الموعد .

سوف يحضر إلى هنا يانوال .... سوف يحضر إلى هنا ، سوف ترينه بعد ساعة واحدة ....

يا إلهى .... إن قلبى يكاد أن يتوقف .

وبعد قليل سمعت طرقا سريعا على الباب .... ودخلت كوثر .

ـ نوال .... ألم تنته بعد . ؟! لقد امتلأ البيت بالمدعوين ، وحضرت والدة العريس واخوته وبعض اقاربه . لقد اتصل أبى وطلب أن نكون على استعداد فقد تم عقد القران ، وسيحضرون بعد حوالى عشر دقائق .. هيا .... هيا ... لم يعد هناك وقت . وقالت وهى تهم بالانصراف :

ـ على فكره ... ستخلبين الألباب اليوم ، أيتها الأميرة الحسناء .

—*—

أقيم حفل الرجال فى فندق مجاور ، حيث أقيمت وليمة كبيرة بعد عقد القران .

وما أن وصل العريس إلى البيت حتى علت الزغاريد ......

كانت نوال تقف لاستقباله عند المدخل وهى ترتجف من شدة الانفعال . لم تره عندما دخل ، ولم ترفع عيناها إليه ، ولا تدرى كيف مدت يدها لتصافحه ، وكيف سارت معه وسط المدعوين وكيف جلست إلى جواره فى المكان المعد لها ، ولم تشعر بنفسها وهو يضع خاتم الخطبة فى إصبعها ..

وانطلقت الأضواء من حولها ، وشعرت بأناس كثيرين يصافحونها ، وقبلات تنهال عليها ، وتهانى ، ودعوات وضحكات ....

وأخيرا .... خلت الغرفة إلا منه ومنها .

كانت حائرة ، خجلة ، مرتبكة ، حاولت أن تقول شيئا ، حاولت أن تنظر إليه فلم تستطع .

ومضت فترة من الصمت قال بعدها فى صوت خافت :

ـ مبروك يانوال ....

ولم تجب ....

وصمت قليلا ثم قال مرة اخرى :

ـ إننى سعيد جدا .... إننى أسعد رجل فى العالم لأنك قبلت الزواج منى .

وبقيت صامته .

ـ لماذا لا تجيبين .... ألست سعيدة مثلى ؟

وهزت رأسها بالايجاب ، فابتسم وقال :

- ما هذا يا أبله المديرة !! .. إنك خجولة جدا .... وجميلة جدا أيضا .

وأحست بالدماء تندفع حارة إلى وجنتيها ، وبسرعة أخفت وجهها بكفيها .

وضحك الشاب فى سعادة ، وقال وهو يبعد يدها فى رفق :

- هل تعلمين ... أن الخجل يزيدك جمالا .

وصمت قليلا ثم قال :

- لقد أحببتك مذ رأيتك أول مرة ، ولم أكن أعلم أنك جميلة إلى هذه الدرجة .

وهزتها الكلمة ...

- رأيتنى أول مرة ... وهل رأيتنى قبل الآن .. ؟!

فقال فى رقة :

- لا تندهشى هكذا ، نعم رأيتك قبل الآن عدة مرات ، وليس مرة واحدة .

فقالت متلعثمة :

- أين .... كيف ... أقصد أين رأيتنى وكيف كان ذلك ؟

فقال مداعبا :

- لا لن أخبرك ، إن هذا سر هل تودين معرفة اسرارى هكذا .... منذ أول لحظة .؟

- أرجوك ... أرجوك أن تخبرنى .

- حسنا .... وكم تدفعين ثمنا له ؟

- أطلب ما تريد ، إنى طوع أمرك وملك يمينك .

ونظر إليها الشاب فى حب ، وظل صامتا لفترة ثم قال :

- لم يخدعنى قلبى إذاً ... لقد عرفت عنك الكثير مذ رأيتك أول مرة .

وأحست نوال بالخوف .... آه ياربى ... قلبى يحدثنى أنه أخطأ .... إنه يتكلم عن إنسانة أخرى .... إنسانة أخرى يانوال .

وتنبهت على صوته وهو يقول :

- تعرف أنى أعمل مهندسا معماريا فى البلدية ، أنهيت دراستى فى الخارج منذ حوالى ست سنوات . وطوال هذه المدة لم تكف أمى يوما عن حثّى على الزواج .

ولم أمانع أبدا ، فقد كان لدى رغبة شديدة فى الارتباط بإنسانة رقيقة متزنة ،تقاسمنى أيامى ، وتشاركنى أفراحى وأحزانى وتملأ حياتى حبا وسعادة .

وبحثت كثيرا ، وسألت كثيرا ، ورأيت الكثيرات ، ولكننى لم أعثر على ضالتى ، ولم تستطع أى واحدة منهن أن تقنع عقلى وقلبى معا . حتى يئست أمى ، وكدت أيأس أنا أيضا ، حتى أنى تركت الموضوع جانبا ، ولم أعد افكر فيه اطلاقا .

ومنذ أسابيع قليلة ، ذهبت مع بعض العمال لمعاينة منزل متهدم آيل للسقوط ، قبل إزالته ، وكان قد أخلى من سكانه منذ مدة طويلة وكذلك لفحص المبانى المجاوره لمعرفة مدى تحملها للاهتزازات الناتجة عن الهدم .

وبعد أن انتهيت من الأدوار السفلى ، صعدت الى أعلى بمفردى لفحص السطح سريعا قبل مغادرة المنزل .

وما أن هممت بالدخول حتى سقط شيء أشبه بحجر صغير فوق ثوبى . وعندما التقطته ... دهشت فقد وجدت أنه قطعة من الجبن .

ونظرت من بين الأنقاض وهناك رأيتك لأول مرة فى حياتى .

وتواريت سريعا ، وأخذت أراقبك وأنتِ لا تدرين .

كنت تقفين فى نافذة المدرسة المجاورة ، تراقبين الفئران الصغيرة باهتمام شديد ، وتقذفين إليها بين حين وآخر بقطع من الجبن ، وبعد قليل دخلت وأغلقت النافذة من خلفك .

وقفت مذهولا ... لا أصدق ما أرى .

هل هذا معقول ؟! .. هل يمكن أن تكون هناك إنسانة رقيقة إلى هذه الدرجة ، إلى درجة أن تشفق على الفئران ...

الفئران . ؟! ..

وغادرت المكان والحيرة تتملكنى ، ولم أستطع أن أتوقف عن التفكير فيك طوال اليوم والأيام التالية .

وسألت عنك ...

عرفت أنك مديره المدرسة ، وأنك ناجحة فى عملك ، وأنك من عائلة طيبة . ولكن العجيب فى الأمر أن جميع الناس اتفقوا على أنك قاسية القلب عديمة الإحساس ، جامدة الشعور ، مما زاد من حيرتى .

وقررت الذهاب مرة أخرى لرؤيتك ..

ولعدة أيام ، كنت أقف بين الأنقاض أراقبك خفية وأنت لا تشعرين . كنت أتعجب وأنا أراك تطعمين الفئران الصغيرة ووجهك ينطق بحنان ورقة بالغة . وأحيانا كنت تشردين بعيدا ويكتسى وجهك مسحة من الحزن ، وتطل من عينيك نظرة تصل إلى أعماق قلبى .

وفى يوم .. وقفت أنتظر خروجك إلى النافذة وطال انتظارى ، وهممت بالانصراف . وفجأة رأيتك تندفعين إلى النافذة فى انفعال شديد ، وأخذت تضغطين على إطارها بيديك ، ووقفت هناك للحظات تحاولين جاهدة أن تخفى انفعالك وأن تحبسى دموعك ، فلم تستطيعى ...... وفرت الدموع من عينيك رغما عنك ....

وفرت الدموع من عينى رغما عنى .. وعرفت أنى قد أحببتك .

نعم يانوال ... أحببتك ، أحببتك من كل قلبى . أحببت شفافية نفسك وهذه الرقة النابعة من أعماقك ، هذه الرقة التى كنت تحاولين دائما إخفاءها . أحببتك لأنك تملكين قلبا صافيا مرهفا ورقيقا فى زمن امتلأت فيه القلوب بالأحقاد والقسوة والشرور ، وخدعتنا فيه الكلمات والضحكات والدموع الزائفة .

وصمت قليلا ، ونظر إليها :

- نوال ... لماذا تبكين ياحبيبتى ؟

فقالت فى صوت خافت حزين :

لقد تعبت ... تعبت كثيرا وأنا أحاول إخفاء حقيقة نفسى عن الناس لماذا ... لماذا أحببتنى ياسامى ، لماذا أحببت إنسانة ضعيفة مثلى ؟

- إنك انسانة رقيقة ولست انسانة ضعيفة .

- ولكن الرقة ضعف .

ـ من قال لك هذا .. ان الرقة قوة وليست ضعفا ، إن أقسى القلوب تلين امام رقتك وصدق مشاعرك .

ـ ولكن الناس لا ترحم ، إن القلوب الرقيقة تدوسها الأقدام ..

أبدا ... أبدا .. إن الناس ، يحبون ذوى القلوب الرقيقة والمشاعر الصادقة ؛ ومحبة الناس قوة .

وصمتت الفتاة .... كانت تجلس مستسلمة . ولأول مرة منذ أعوام طويلة أحست بسكينة وهدوء يملأ قلبها .

وانهمرت دموعها غزيرة على وجنتيها .

وقال الشاب وهو يربت على كتفيها :

ـ نوال أرجوك .... لا أحتمل أن أراك وأنت تبكين .

ونظرت إليه الفتاة طويلا ......

لماذا ياسامى .... لماذا لم تأت قبل الآن .... لقد انتظرتك طويلا ؟ .. "وأنا أيضا ... انتظرتك طويلا ، وبحثت عنك كثيرا ...حتى وجدتك أخيرا . "

ومضى الوقت سريعا ، وانتهى الحفل ، وانصرف الجميع وبقيت جالسة فى مكانها تبكى فى صمت .

وبعد قليل اندفعت من مكانها فجأه وهى تصيح :

ـ أبى ... أبى ... أبى ..

وأخذت تبحث عنه فى أرجاء البيت ، حتى وجدته ، فارتمت فى أحضانه وأخذت تقبله وتبكى

ـ أبى أحبك يا أبى ... أحبك من أعماق قلبى .

واحتضنها الرجل فى حب ، وأخذ يمسح على شعرها فى حنان ، وقال وقد امتلأت عيناه بالدموع :

ـ أعرف هذا يا ابنتى ..... وكنت أعرف هذا طوال الوقت .... وانا أيضا أحبك يا نوال .... أحبك من اعماق قلبى .

الفصل التاسع

وقبل أن يكمل الكلمة
كانت الدماء قد اندفعت
من حلقه وأنفه غزيرة.
وفي لحظة واحدة أصبح
المكان من حوله بركة
من الدماء...
واندفعت إلى باب
الغرفة وأخذت
أصرخ حتى
كدت
أفقد الوعي



عندما كنت طفلة صغيرة يا ابنتى ، أحضر لى أبى يوما قطعة من الزئبق وضعها فى زجاجة صغيرة مغلقة بإحكام لألهو بها ، وقال لى :

ـ تيا ... لا تفتحى الزجاجة أبدا حتى لا ينزلق منها الزئبق .

ـ ولكنى أريد أن أضعه فى يدى ... أريد أن أمسك به يا أبى .

ـ لن تستطيعى هذا يا ابنتى ، سوف ينزلق إلى الأرض ولن تستطيعى جمعه مرة أخرى .

ولم أصدق ...

كانت لدى رغبة شديدة فى أن أمسك بقطعة الزئبق الفضية . كنت أراقبها طوال الوقت وهى تتلاعب وتتراقص على جدار الزجاجة ، وتتكسر وتتجمع سريعاً مرة أخرى ، فأتعجب لها ، وتزداد رغبتى فى الامساك بها .

وفى يوم ، وفى غفلة من أبى ، فتحت الزجاجة ، وبحرص شديد وضعت الزئبق فى كفى وأخذت أراقبه فى سعادة للحظات.

وبعد قليل ، أردت أن أتحسسه بيدى الأخرى ، وما أن وضعت إصبعى فوقه ، حتى انزلق فجأة الى الارض ، وتناثر إلى قطع صغيرة هنا وهناك .

وصرخت ، وأخذت فى البكاء ، وحضر أبى مسرعا .

ـ ألم أقل لك يا تيا ... لا يستطيع أحد الإمساك بالزئبق يا ابنتى .

ومضت فترة طويلة ، وأبى جالس على الأرض يحاول أن يجمع قطع الزئبق المتناثرة ، ويعيدها إلى الزجاجة مرة أخرى .

وفى النهاية ، وبعد أن استطاع أن يجمع جزءاً صغيرا منها ، أحضر قطعة معدنية قديمة ، ووضع عليها الزئبق ، وأخذ يدعكه بعناية شديدة ، حتى أصبحت القطعة الصدئة لامعة وكأنها قطعة من الفضة .

ـ خذى يا تيا ... يمكنك الآن الاحتفاظ بها . إنها الطريقة الوحيدة التى تتمكنين بها من الإمساك بالزئبق . وبعد مدة عندما يذهب لونها ، سوف أحضر لك قطعة أخرى من الزئبق لأعيد للمعدن بريقه .

وهكذا السعادة الحقيقية يا ابنتى ... مثل قطعة الزئبق ... إن لها بريقا يخطف الأبصار ، ويسلب العقول ، كلنا نسعى إليها ونحاول الإمساك بها دون فائدة . علينا فقط أن نراقبها من بعد ... ونحلم بالحصول عليها ، وعلينا أيضا أن نكتفى بقدر قليل منها يعطى البريق لنفوسنا الصدئة بين حين وآخر .

أخبرتك يا ابنتى أننى قضيت ثلاثة أشهر فى المستشفى لعلاج الكسور ، ثم نقلت بعد ذلك الى مصح للأمراض العصبية . قضيت هناك فترة طويلة ، وحالتى تزداد سوءاً ، فقد كانت لدى رغبة شديدة فى التخلص من حياتى . عشت أياما طويلة تحت تأثير الحبوب المنومة ، والإبر المخدرة ، وحاول الأطباء تهدئتى بشتى الطرق دون فائدة . حتى استطاع طبيب شاب فى النهاية أن يقنعنى بالسفر لرؤيتك ، وسهل لى الأمر لدرجة أحييت الأمل فى نفسى مرة أخرى ، وبعثت الحياة والقوة إلى جسدى . وما هى إلا أيام حتى غادرت المكان نهائيا .

اتجهت من فورى إلى بيتى ، وقد قررت أن أبيع كل ما أملك حتى أثاث البيت ، لأحصل على المال اللازم للسفر .

وفوجئت أن البيت يسكنه أناس آخرون . وعلمت بعد ذلك أن اللصوص قد سطوا عليه ، فقد تركته كما تعلمين بدون حراسة أو رعاية لمدة طويلة . كما أن صاحبه استصدر أمرا بإخلائه بحجة أن المستأجر قد غادر البلاد إلى غير رجعة ، وأن زوجته اختفت ولا يدرى عنها أحد شيئا . وقام تنكو دمنهوجى بتسلم باقى الأثاث ومحتويات البيت ، وتعهد بالاحتفاظ بها لحين عودتى .

وذهبت اليه ....

وعندما رآنى الرجل لم يصدق نفسه وصاح من شدة المفاجأة :

ـ تيا ... أهذا أنت ؟ ! أين كنت طوال هذه المدة ؟ لقد ظننت أنك قد هلكت أيتها الشقية . حمدا لله على سلامتك . تعالى ... تعالى إلى الداخل لتستريحى وتروى لى كل شيء .

وقبل أن أفتح فمى كان قد اصطحبنى من يدى الى الداخل فى مودة شديدة ، ونادى على زوجته لتجلس معنا .

وما أن هممت بالحديث ، حتى انخرطت فى البكاء .

وظل الرجل صامتا لا يدرى ماذا يقول ، وأخذ يراقبنى فى حزن شديد .

وقلت وأنا أشهق بدموعى :

ـ أرجوك يا سيدى ... إن كنت تحب الله والرسول ساعدنى لأذهب اليها .

فقال الرجل وقد أشفق لحالى :

ـ هونى عليك يا تيا ... سوف اساعدك قدر استطاعتى ، أقسم أننى سوف أساعدك ، فقط هونى عليك ... هونى عليك يا تيا .

ـ أرجوك اذا أن تبيع ما تبقى لديك من أثاث ، وتشترى بثمنه تذكرة للسفر لبلاد الحجاز ،إنى على استعداد للسفر بأية وسيلة ، حتى لو اضطررت للوقوف طوال أيام الرحلة فوق صارى السفينة . أرجوك يا سيدى ، إن قلبى يحترق لوعة عليها .

ـ أعرف هذا يا تيا ... أعرف هذا . سأفعل كل ما تطلبين ، وسوف تذهبين إليها قريبا ان شاء الله .

وهدأت نفسى قليلا .

وجلست معهما فترة قصيرة ، واستأذنت فى الذهاب لأرى أبى وجدتى ، على أن أعود إليه بعد أسبوع يكون خلالها قد أتم اجراءات السفر .

وتوجهت من فورى إلى القرية .

وما أن رأتنى جدتى حتى شهقت وأخذت تحملق فى وجهى ذاهلة . وبسرعة اندفعت اليها وارتميت بين أحضانها ، وأخذت فى البكاء من جديد .

واحتضنتنى جدتى فى لهفة ، وأخذت تقبل رأسى فى حنان وهى تتمتم : الحمد لله ... الحمد لله ...

ولم يلبث أبى أن عاد من الخارج ....

وقف عند باب الغرفة جامدا ينظر الى وكأنه لا يصدق نفسه . وسقط السمك من بين يديه ، وتناثر على الأرض .

ـ تيا .... يا بنيتى الحبيبة ، كدت أيأس من عودتك مرة أخرى .

بدا أبى نحيلا .... ذابلا .... شاحبا ، وكأنه خرج من القبر لتوه .

وجلس إلى جانبى يحدثنى ، وأنا لا أسمع شيئا مما يقول ، من شدة حزنى عليه .

قاتلك الله يا ألنتو ...

وطهوت الأرز والسمك ، وجلسنا لنأكل سويا ... ونظرت إلى نفسى ، ونظرت الى أبى وجدتى ، وأحسست بحزن شديد يجثم على صدرى وأنفاسى .

ثلاثتنا مثقل بالهموم .... شارد الذهن ... يزدرد الطعام ازدرادا .

وفى الأيام التالية ، لم أغادر الغرفة مطلقا ، وكنت أتحدث إلى جدتى طوال الوقت ، ورويت لها كل ما حدث .

وشجعتنى على السفر ، وقالت لى :

ـ يجب عليك أن تذهبى إليها يا تيا ، لا تقلقى من أجلى ، أو من أجل أبيك ، لقد تغير سراج الدين كثيرا فى غيابك ، وبعد رحيل المرأة التى أحضرها السيد لخدمتنا ، أصبح يطهو الطعام ويغسل الثياب ويقوم على خدمتى . حقا انه يتحرك كالآله ، لا يتكلم ولا يضحك ولا يبتسم ، ولكنه يرعانى على كل حال . وعندما تتحسن أحوالك هناك ، يمكنك العودة لرؤيتنا ، أو يمكنك أن ترسلى إلينا لنذهب اليك . ألا تريدين لجدتك العجوز أن تحج إلى بيت الله قبل أن تموت يا تيا .

وفى نهاية الأسبوع ، ذهبت لمقابلة تنكود منهوجى .

أحسست بفرحة غامرة ، وأنا أمسك بجواز السفر والتذكرة فى يدى .

أخيرا سوف أتمكن من رؤيتك يا إسلام يا حبيبتى ، بعد خمسة وعشرين يوما

سوف أضع قدمى على السفينة لتحملنى إليك يا صغيرتى .

وعدتمرة أخرى إلى القرية ، وأخذتأعد الساعات، وأتعجل الأيام ، وأحمد الله كلما مر نهار أو انقضى ليل .

وشغلنى التفكير فيك عن أى شىء آخر .

وفى يوم ... وكان قد بقى على موعد السفر ثلاثة أيام ، أعددتالطعام ، وناديت على أبى ليأكل معنا ... فلم يجب .

فقالت جدتى :

ـ قومى إليه يا تيا وانظرى ما به ، انه لم يتذوق الطعام منذ يومين .

وانقبض صدرى ....

كيف لم اتنبه إلى ذلك ، كيف شغلت عنه الى هذه الدرجة ، إنه بالفعل لم يتناول الطعام ، ولم يغادر الغرفة منذ يومين أو اكثر .

وبسرعة قمت إليه وجلست إلى جوار فراشه ونظرتاليه .

كان مغمض العينين ، يتنفس ببطء . ووضعت يدى فوق جبهته ... يا إلهى ... لقد كان محموما .

وهززته برفق :

ـ أبى ... أبى ... ماذا بك ؟ ... أجبنى ؟

وفتح عينيه ببطء ... كان لونهما أصفر كقشر الليمون ، ونظر الى ، وعاد وأغلقهما من جديد وقال فى صوتضعيف :

ـ برفين يا حبيبتى ... ها قد عدتأخيرا ... برفين يا حبيبتى .

وجف حلقى من شدة الرعب ...

وبسرعة انطلقت إلى بيت سوهارتو وطلبت منه أن يحضر الطبيب .

وحضر الطبيب ... نفس الطبيب العجوز الذى قام بعلاج أمى فى مرضها الأخير ، لم يتغير الرجل وكأنى أراه منذ عشر سنوات.

وبعد أن فحص أبى سريعا ، أخبرنى أنه مصاب بمرض الصفراء وأن حالة الكبد سيئه للغاية ، نتيجة إدمانه للخمر .

ونقل أبى الى المستشفى ....

وتحطم أملى فى ان أراك سريعا يا إسلام .

وحاولت جدتى أن تقنعنى بالسفر ، وقالت أن وجودى الى جانب أبى لا لزوم له ، وأن المستشفى سيقوم برعايته على أكمل وجه . وحاولت أن تقنعنى أيضا بأنها فى غير حاجة إلى ، وأنها لن تعدم أحدا يقوم على رعايتها .

ولكنى لم أقتنع ، فكيف لى أن أتركها ... كيف .

أنها جدتى ... عجوز ضعيفة ، أعرف أنها فى أشد الحاجة إلى رعايتى لها .

وهو ..إنه أبى ... إنسان مريض ممزق النفس . لقد أحبنى دائما ، ولم يسىء إلى فى يوم بقدر ما أساء الى نفسه ...ولم يكن أمامى بديل للصبر .

وقررت تأجيل السفر قليلا حتى يتم شفاء أبى . وأخذت أذهب لرؤيته كل يوم ، وأقوم على خدمة جدتى ورعايتها ، وعدت للعمل فى المقهى ...

عدت للعمل فى المقهى ، وعدت لرذالة ألنتو وصفاقته .

بمجرد ان رآنى ، نظر الى بوقاحة وهو يقول :

ـ أهلا بك يا تيا ... لقد كبرت وأصبحت أكثر أنوثة عن ذى قبل .

وتظاهرت بأنى لم أفهم شيئا ، وقلت وأنا أنظر اليه خفية :

ـ كيف حال زوجتك يا ألنتو ، لقد اشتقت إليها كثيرا ، إنها امرأة قوية ، وسوف أذهب لزيارتها قريبا . وتغير وجهه سريعا ، وقال متلعثما :

ـ إنها بخير ، وسوف تسعدها زيارتك يا ... يا ابنتى .

وعادت حياتى لسيرتها الأولى ، ولكنى لم أعد كما كنت ، وتذكرت كلام جدتى يوم أن تقدم أبوك للزواج منى .

" أرجو هذا يا ابنتى ... أرجو أن يكون أميرا بالفعل ، وليس صقرا ، جاء ليبتلع الحمامة الوديعة . "

نعم يا جدتى ... لقد كان صقرا شرسا ، بل أشد شراسة من جميع الصقور ، لأنه لم يبتلع فريسته ، وانما أنشب مخالبه فى جسدها ، وتركها دون رحمة بين الحياة والموت.

لقد قتلني فراقك يا إسلام ، قتلني يا بنيتي ... كنت أموت في اليوم مائة مرة ، وأنا أحترق شوقا إليك ، وأتمزق لهفة عليك .

وعندما أخلو إلى نفسي ، أظل أبكي وأبكي وأبكي ، وأضرب وجهي ، وأصب الماء البارد على رأسي وصدري ، وأرفع يدي إلى السماء ، أطلب من الله الصبر ... أو الموت.

قضى أبي في المستشفى ، عدة أسابيع قبل أن يسمح له الأطباء بالعودة إلى البيت .

أصبح هشا كورقة الخريف الجافة .

وتفانيت في رعايته ، والعناية به ، وأخذت أراقبه دوما حتى لا يعود لشرب الخمر مرة أخرى فيقتل نفسه .

وتحسنت صحته تدريجيا ، ولكنه ظل ضعيفا لا يستطيع الاعتماد على نفسه كلية .

ومرت الشهور .. ومرت السنون بطيئة كئيبة .

ولم أعد أحتمل ، وفكرت جديا في السفر ، ولكن أين المال ... ؟ أين المال يا تيا ... أين المال أيتها الغبية ، ألم تفكري في هذا ، لقد بعت أثاث بيتك من قبل ، والآن ... ماذا لديكم لتبيعينه ، لا شيء ... لا شيء على الاطلاق .

وفكرت كثيرا في وسيلة أستطيع بها أن أوفر بعض المال ، حتى اهتديت اليها ... إنه التطريز بالإبرة ، نعم ... لقد علمتني جدتي هذا الفن في صغري حتى أجدته ، فلماذا لا أستفيد منه الآن ...

وهكذا كنت أقضي أوقات فراغي ، وجزءا من الليل في تطريز المفارش واللوحات وملابس الأطفال ، وأذهب الى السوق في نهاية الأسبوع لأبيعها بثمن قليل ، وكلما تجمع لدي مبلغ من المال ، أحسست أني أقترب منك خطوة ، ويضيء الأمل في صدري ، وأزداد حماسا للعمل ، حتى أصبحت لا أنام إلا ساعات قليلة .

ويبدو أن انشغالي قد أعطى الفرصة لأبي ليعود لسيرته الأولى في شرب الخمر

مرة أخرى فى غفلة منى ، حتى نبهتنى جدتى لذلك , وحاولت كثيرا أن أمنعه دون فائدة .

وبدأت صحته تتدهور مرة أخرى .

وفى يوم عاد فى المساء وارتمى على فراشه ، واستغرق فى نوم عميق .

وفى اليوم التالى ، لم يتناول الطعام ، وقال أنه يشعر بتعب قليل ، فصنعت له قليلا من حساء السمك ، وجلست الى جواره أحاول أن أقنعه بأن يشرب شيئا منه . فقام مرغما ، وعاونته على الجلوس فى الفراش بصعوبة شديدة ، فقال وهو يضع يده على صدره :

– تيا ... إن لدى رغبة فى أن أفرغ ما بجوفى ... وقبل أن يكمل الكلمة ، كانت الدماء قد اندفعت من حلقه وأنفه غزيرة ، وفى لحظة واحدة ، أصبح المكان من حوله بركة من الدماء .

واندفعت إلى باب الغرفة وفتحته ، ووقفت أصرخ حتى كدت أفقد الوعى .

ونقل إلى المستشفى مرة أخرى فى حالة أسوأ من ذى قبل .

وسمح لى الأطباء بالبقاء معه .

وظل أبى غائبا عن الوعى أغلب الوقت . وكلما أفاق إلى نفسه فتح عينيه ونظر من حوله وسألنى ؛ :

– تيا ... ألم أذهب لبرفين بعد ؟ ... دعونى أذهب اليها ، لم أعد أحتمل ... لم أعد أحتمل .

وكنت أجلس إلى جواره طوال الوقت ... أبكيه فى صمت .

كنت أتمزق ألما وأنا أراه مسجى أمامى ، نحيلا ، أصفر اللون ، بطنه منتفخة ، وتنبعث منه رائحة كريهة للغاية .

أسابيع طويلة لا أدرى كيف مرت، وحالته لم تتحسن اطلاقا .

وفى يوم عاوده النزيف من جديد ... وضجت المستشفى ...

كان هناك العديد من الأطباء والممرضين . فحصوه مائة مرة ، وحقنوه مائة مرة ، وادخلوا فى أنفه أنبوبا جلديا طويلا ، وأصبح المكان من حوله لا يخلو دقيقة واحدة ، ووضع تحت رقابة صحية شديدة .

وبعد ثلاثة أيام ، أسرعت الممرضة ، واستدعت الطبيب ... وحضر مسرعا ، وقام بفحصه ، وظهر على وجهه الانزعاج . وبعد قليل ، أبعد جهاز الحقن عنه ، وأخرج الأنبوب من أنفه ، وجذب غطاء السرير الأبيض فوق وجهه .

ولم أفهم ...

ووقفت بجانب الطبيب ، أنظر اليه متسائلة ، فأمسك بكتفى وقال بهدوء شديد :

ـ تمالكى نفسك يا سيدتى ، إن البقاء لله وحده .

واقتربت من سريره فى ذهول ، وأزحت الغطاء عن وجهه ، وأخذت أنظر اليه ....

بدا هادئا ، مستسلما ، وعلى شفتيه شبه ابتسامة .

وجلست إلى جواره ، وأمسكت بيده الحبيبة ، احسست به يضغط على يدى برفق . ولا أدرى لماذا تذكرته لحظتها وهو يقول :

ـ تيا ... إنك طفلة ذكية ، وأنا أحبك كثيرا ، وسوف تصبحين يوما عالمة كبيرة ، وعندها سوف أبنى لك مدرسة خاصة تحمل اسمك ، فيأتى الناس من جميع القرى المجاورة ليتعلموا أصول الدين على يديك .

وهاجت نفسى ... ولم احتمل ... فاحتضنت وجهه أقبله وأبكى .

عدت إلى القرية وحيدة حزينة ، ولم تفارقنى الدموع طوال الطريق .

وحاولت أن أتمالك نفسى قبل أن أدخل الغرفة .

كانت جدتى تجلس فى فراشها كعادتها وقد أمسكت بسبحتها . وما أن رأتنى حتى سألتنى :

ـ هل عدت يا تيا ... لقد تغيبت كثيرا ، كيف حال سراج الدين ؟ .

وانخرطت فى البكاء وقلت لها :

ـ لقد مات أبى يا جدتى ... مات أبى ... واندفعت الى الداخل ، وارتميت على فراشه ، أبكيه فى لوعة .

ونظرت إلى جدتى ...

كانت تجلس فى هدوء وتعبث بسبحتها وكأنها لم تسمع شيئا .

وتعجبت لها وصحت فيها :

ـ جدتى ... ألم تسمعى ؟ ! .. لقد مات أبى .

ولم تحرك ساكنا ... واستمرت فى جلستها هادئة وكأن الأمر لا يعنيها .

فاندفعت اليها ، وأمسكت بكتفيها ، وهززتها بعنف :

ـ جدتى ... لقد مات ولدك ... مات سراج الدين ... أفلا تبكينه ، ألا تبكين ولدك يا جدتى ، ماذا حدث لك ... هل تحجر قلبك ؟ !

ورفعت جدتى عينيها ببطء ونظرت إلى فى هدوء وقالت :

ـ ولماذا ابكيه ... ؟

ـ قلت لك لقد مات... مات..

فصمتت قليلا ونظرت إلى الأرض ، ثم قالت وهى تدفعنى برفق بعيدا عنها :

ـ لقد مات ولدى منذ سنوات بعيدة ... فلماذا ابكيه اليوم ، لقد مات سراج الدين يوم أن قتل برفين ، مات يوم أن بدأ يشرب الخمر يا تيا ... مات يوم أن بدأ يشرب الخمر .

لقد بكيته يومها طويلا ... طويلا ، فلماذا ابكيه الآن ... لماذا . لماذا تريدين منى أن أبكى على جثة فارقتها الحياة منذ زمن طويل ؟ !

ونظرت إلى وقالت فى انفعال شديد :

ـ لا تبكيه يا ابنتى ... لا تبكيه أبدا ، يجب أن تسعدى من أجله .

وتنهدت وهى تقول :

ـ نعم يا ابنتى ... يجب أن تسعدى من أجله ، فقد استراح سراج الدين أخيرا .

الفصل العاشر

ورفعت يدي الى السماء، وأخذت أدعو الله مرة أخرى، وأنا أصرخ وأبكي في حرقة شديدة.
وفجأة... سمعت صرخة مدوية، والتفت من خلفي، وانخلع قلبي لهول ما رأيت.



ألم أقل لك يا ابنتى من قبل .... ليس هناك بديل للصبر .

فبوفاة أبى ، انقطع الأمل من جديد ، وانطفأ بصيص النور الذى كان يضىء فى صدرى ، ويساعدنى على احتمال حياتى ، ويساعدنى على الصبر .

وخلت الغرفة إلا منى ومن جدتى .

حاولت كثيرا أن تسرى عنى .... فلم تستطع .

وحاولت كثيرا أن أخفى عنها أحزانى .... فلم أستطع .

وعادت تلح ، وتحاول إقناعى بالسفر وقالت لى يوما :

ـ تيا ... لقد مضت سنون طويلة منذ وفاة والدك ....

ولم أمت بعد يا ابنتى .

ـ لا تقولى هذا يا جدتى مرة أخرى .

ـ إنها الحقيقة يا ابنتى ، يبدو أننى لن أموت سريعا ، أرجوك يا ابنتى ، إن كنت تحبيننى حقا ، سافرى واتركينى فى دار للعجزة .

وصحت فيها :

ـ جدتى ... قلت لك مائة مرة الا تتفوهى بمثل هذا القول .

ـ اذاً .... أتركينى هنا وارحلى ، وسوف أدبر أمرى بنفسى .

ـ جدتى .... وبعدها معك .

ـ اذاً سوف أجلس عند زوجة سوهارتو حتى .....

ـ جدتى .... إن لم تكفى فسوف أترك الغرفة وأجلس فى العراء .

وصمتت على مضض . وأحسست بها تبكى بصوت خافت .

وتألمت لحالها ، فقمت إليها ، وجلست بجانبها ، وأخذت أربت على كتفيها :

ـ جدتى .... ألا تحبيننى ....؟

ـ وكيف لا .. إنك ابنتى .

ـ فكيف تصبرين على فراق ابنتك .... ولا أصبر أنا على فراق ابنتى .

ـ سأصبر يا ابنتى ... سأصبر ، فقط أرجوك أن ترحلى ، صدقينى إنى أتمنى الموت فى اليوم مائة مرة حتى لا أكون العائق الوحيد الذى يمنعك من السفر إليها .

ـ لا تقولى هذا يا جدتى .... إنى أحبك بقدر محبتى لإسلام ، وقد فكرت كثيرا ، ووجدت أن أفضل حل لنا هو أن نسافر معا يا جدتى ، بشىء من الصبر والجهد سوف أتمكن من أن أجمع المال اللازم .

ـ لن تستطيعى هذا يا ابنتى ، لقد ارتفعت تكاليف السفر فى السنوات الأخيرة وتضاعفت .

ـ لا عليك ... سوف أدبر أمرى .

ومرة أخرى انهمكت فى التطريز والحياكة بحماس شديد .

وأخذت أجمع المال قليلا" قليلا وأضع الروبية فوق الأخرى .

وفكرت كثيرا فى أن أترك العمل فى المقهى ، وأبحث عن عمل آخر يدر على دخلا أكبر فلم أستطع .

وقررت أن أستعين بتنكود منهوجي .

وذهبت لزيارته فى اليوم التالى .

جلست أنتظر فترة طويلة عند المدخل ، حتى جاء الرجل .

بدا حزينا ، مهموما إلى درجة كبيره . وسألنى :

ـ كيف حالك يا تيا .... أعذرينى يا ابنتى ، فقد مضت فترة طويلة لم أتمكن فيها من زيارتكم ، لقد شغلتنى ابنتى الصغيرة مريم حتى عن نفسى .

وسألت فى لهفة :

ـ هل هى مريضه ....؟

ـ أولا تدرين ؟!.. إنها مريضة منذ فترة طويلة ، ولم يعرف الأطباء حتى الآن حقيقة مرضها . لقد أصبحت ضعيفة هزيلة ، أخشى أن أفقدها فى يوم قريب يا تيا .

ـ لا تقل هذا يا سيدى بالله عليك .

ـ انك لا تعرفين شيئا يا تيا .... لقد أصبحت على ضعفها هذا عصبيه إلى درجة كبيرة ، وبالذات فى معاملة الخدم . هل تصدقين أن الخادم لا يمكث فى بيتنا أكثر من أسبوع واحد . لقد أصبحت غريبة الأطوار ، ليتنى أستطيع أن أعرف ما بها .

ـ هل لى أن أراها يا سيدى لحظة لأطمئن عليها .

وقادنى الرجل إلى الطابق العلوى ، وأدخلنى غرفتها ، وتركنى معها قليلا .

كانت الطفلة فى حوالى التاسعة من عمرها ، ضعيفة ، شاحبه ، كل ماحولها ينطق بالرفاهية والثراء ، لم يكن يبدو أن هناك شيئا ينقصها ، ومع ذلك بدت الطفلة حزينة إلى حد بعيد .

واقتربت منها ، وجلست إلى جوارها ، وأخذت أتطلع إليها ......

وتذكرت لحظتها .... فانهمرت دموعى رغما عنى .

أحسست بشوق شديد ، ولهفة عليك ، فما أدرانى .... ربما كنت يا صغيرتى فى حاجة إلى الآن ..... فى حاجة إلى وجودى بجانبك ، ربما كنت حزينة أو مريضة ، ولا أحد يرعاك .

آه يا اسلام يا حبيبتى ......

ونسيت نفسى ، ونسيت الطفله ، وأخذت أفكر فيك وأبكى .

وبعد قليل أحسست بيد صغيره تربت على كتفى .

ـ مابك .... لماذا تبكين ....؟

ورفعت رأسى ، وتطلعت اليها ....

كانت فى عينيها نظرة حزينة قلقه .

وقلت من خلال دموعى :
ـ لا شيء .... لا شيء .... لا عليك منى ، أخبرينى كيف حالك يا صغيرتى ؟
ـ إننى بخير .... ولكن لماذا تبكين ..؟
فقلت فى أسى شديد :
ـ لقد تذكرت ابنتى ..
ـ وهل لك ابنة .. وأين هى .. ماذا حدث لها ..؟
ـنعم .... إن لى ابنة صغيرة ، جميلة ، أخذها أبوها إلى بلاد بعيدة منـذ عدة سنوات ، وتركنى أتألم وأحترق شوقا إليها ..
ـ يا لك من مسكينة . ولكن أخبرينى ... أوتحبينها إلى كل هذه الدرجة ..؟
ـوكيف لا أحبها .؟!. إنها ابنتى ، إنها قطعة من فؤادى ، هل هناك أم لا تحب ابنتها ؟
ـ نعم .... إن أمى لا تحبنى .
وأزعجتنى الكلمة ....
ـ لا تقولى هذا يا صغيرتى ، إنك مخطئة بغير شك ، إن أمك تحبك كل الحب .
فتنهدت الطفلة وقالت فى حزن :
ـ أبدا .... أبدا ... إن أمى تحب أن تضع المساحيق ، وأن تخرج للنزهة ! ولكنها لا تحبنى . ليتنى كنت ابنتك .
وأشفقت لأجلها ، فاحتضنتها بين ذراعى ، فأخذت فى البكاء ....

مضت ساعات طويلة ، وأنا أتحدث اليها وتتحدث إلى وأنست الطفلة لوجودى معها ، وهدأت نفسها ، وأبت أن تفارقنى إلا بعد أن وعدتها بأن أحضر فى اليوم التالى لزيارتها .

ولم يصدق تنكودمنهوجى نفسه من فرط السعادة . وقال لى وأنا أهم بالرحيل :
ـ تيا .... لماذا لا تبقين معنا .... من أجل مريم ؟
- اننى أتمنى هذا من كل قلبى يا سيدى ، ولكنك تعلم أن لدى عمل بالمقهى .

ـ سوف أعطيك ضعف الأجر الذى تأخذينه هناك ، فقط أرجوك أن تبقى بجوار مريم .

وهكذا تركت العمل بالمقهى .

وأوصيت زوجة سوهارتو أن ترعى جدتى أثناء النهار فى غيابى . وحملت المال الذى استطعت أن أجمعه فى السنوات الأخيرة ، وأودعته فى خزينة المقهى الحديدية ، وأخذت به ايصالا من ألنتو .

وطاب لى العيش فى بيت تنكو دمنهوجى .

فقد أحببت الطفلة كثيرا ، وأحبتنى هى أيضا ، وتعلقت بى ، وأصبحت لا أفترق عنها إلا عندما أهم بالانصراف فى المساء .

وبمرور الوقت ، تحسنت صحتها كثيرا ، وأقبلت على الطعام ، وعادت لدراستها ، وعادت لمرحها .

كانت طفلة رقيقة إلى أبعد الحدود ، افتقدت حنان أمها طويلا ، ولم تجد هناك بدا من ادعاء المرض حتى ترغمها على البقاء إلى جوارها .

كانت فى حاجة إلى حنان وحب حقيقى .... وجدته عندى أخيرا ......

وأحسن تنكو دمنهوجى معاملتى ، وأجزل لى العطاء ، أما زوجته فقد تركت لى البيت أديره كيفا أشاء ، وانطلقت هى فى سهراتها لاهية عن زوجها ، وأولادها وابنتها .

ومرت الشهور والسنون ، عشت خلالها كفرد من الأسرة ، واستطعت أن أنظم حياتهم ، وأصبح الجميع يعتمدون على كلية ، ولا يستطيعون الاستغناء عنى ، وخاصة الصغيره مريم .

كنت سعيدة يا ابنتى ، سعيدة لوجودى معهم ، وسعيدة لأنى استطعت أن أجمع مبلغا يساعدنى فى الوصول إليك ..

وقررت استعادة المال من ألنتو حتى أستطيع شراء تذاكر السفر فى وقت قريب .

عندما عدت فى المساء أخذت الايصال وذهبت إلى المقهى .

كان المكان مزدحما على غير عادته . وكان ألنتو يقف إلى جانب حامل خشبى طويل ، وقد أمسك بمصباح بين يديه ، وانهمك فى اصلاحه ، وتغيير فتيله ، ومحاولة إشعاله .

واقتربت منه وقلت بصوت خافت :

ـ ألنتو .... أرجو أن تعطينى النقود التى استودعتها عندك .

ونظر الى بحقد وقال :

ـ وأين الايصال .....؟

فأخرجت الايصال ، وأعطيته له ، فأخذه سريعا ، وتركنى ودخل إلى غرفة قريبه .

وجلست على أحد المقاعد أنتظره .

وعاد بعد قليل واتجه إلى الحامل ، وانهمك فى إصلاح المصباح وكأن شيئا لم يكن .

وتعجبت له ولم أفهم سر تصرفه .

وقمت إليه وسألته :

ـ ألنتو .... أين المال ....؟

ونظر الى وكأنه لم يرنى من قبل ....

ـ أى مال هذا الذى تتحدثين عنه ....؟

وأحسست بالخوف وقلت له :

ـ المال الذى استودعته فى خزانتك ، ألم أعطك الايصال منذ قليل ؟

وصاح فى وجهى :

ـ إيصال ... أى إيصال هذا .... إننى لم آخذ منك شيئا ولم تعطنى شيئا وهل جئت لتسرقى مالى ....

أغربى عن وجهى أيتها اللصه .

والتفت جميع من بالمقهى يتطلعون إلينا فى فضول شديد .

وأحسست بالدماء تندفع إلى رأسى من شدة الغضب ، ووقفت أنظر إليه

للحظات كالمذهولة ، ثم اندفعت اليه وأمسكت بثوبه وصحت فيه :

ـ ألنتو .... أيها الخائن الجبان .... هل عدت لألاعيبك القذرة .

فدفعنى بقوة بعيدا عنه وهو يقول :

ـ قلت لك ابتعدى عنى .... أقسم أننى لم آخذ منك شيئا .

وجن جنونى .... واندفعت اليه مرة أخرى وأنا أشعر برغبة شديدة فى قتله :

ـ أو تقسم على هذا أيضا .... يا لك من كاذب .... يا لك من جبان .... فليحرقك الله فى ناره .... فلينتقم الله منك ومن أفعالك القذرة . إعطنى المال والا قتلتك أيها الكلب الحقير .

وتجمع الناس من حولنا ، واستطاع بعض الخدم أن يبعدونى عنه ، وأنا أصيح وأبكى فى جنون .

ووقفت عند باب المدخل أصرخ بأعلى صوتى :

ـ يا الله ... إنتقم منه ... إنتقم منه ... احرقه فى نارك ...

لقد أحرق قلبى .... أحرق قلبى .... انتقم منه ياالله .... أحرقه فى نارك .... لينتقم الله منك يا ألنتو .... لينتقم الله منك ....

وأحسست فى لحظتها أن آمالى كلها قد انهارت ، فعندما سرق المال إنما سرق منى رؤيتك يا إسلام ، وحرمنى منك .

ورفعت يدى إلى السماء ، وأخذت أدعو الله مرة أخرى وأنا أصرخ وأبكى فى حرقة شديدة .

وفجأة ... سمعت صرخة مدوية ، والتفت من خلفى ، وانخلع قلبى لهول ما رأيت .

كان المصباح قد سقط من يد ألنتو على الأرض ، وأمسكت النار فى ثوبه ، فأخذ يجرى وسط المقهى كالمجنون يحاول إطفاءها وهى تزداد اشتعالا . وتجمع الرجال من حوله يلقون عليه بالماء وبعض الأغطية دون فائدة ، حتى أصبح الرجل كتلة متحركة

من النار . وفى النهاية سقط على الأرض يصرخ ويتلوى فأسرع أحد الرجال ورمى فوقه غطاء صوفيا ثقيلا ، استطاع أن يخمد به النار سريعا .

ووقفت أنظر اليه وقد شلت أطرافى وتجمد الدم فى عروقى وأقبلت زوجته من الداخل تصرخ وتولول ، واندفعت اليه وركعت إلى جواره ، وأخذت تضرب رأسها ووجهها بكفيها ، ثم أزاحت الغطاء عنه قليلا ......

وسقطت على الأرض مغشيا عليها .

لم أستطع البقاء فى القرية بعد ما حدث .

فقد أصبح الجميع يتجنبون النظر إلى أو التحدث معى ، ويبتعدون حتى عن الطريق الذى أسير فيه . فقد شاع بين الناس أنى أمارس السحر ، وأنى أملك قوة خفية ، أستطيع بها أن أصب لعنتى على كل من يقف فى طريقى .

وخفت أن يحاول البعض ايذاء جدتى فى غيابى ، أو يحاول أولاد ألنتو الانتقام لأبيهم ، فقررت أن أترك الغرفة ، وأرحل بعيدا عن القرية .

ولم أدر إلى أين أذهب ...

وفى النهاية جمعت أمتعتنا فى صرة واحدة ، وحملت جدتى الى كوخ صغير مهجور فوق ربوة عالية فى أطراف المدينة ، لا يزيد طوله عن المترين ، قضيت عدة أيام أحاول ترميمه على قدر الامكان .

ولا أستطيع أن أصف لك مقدار تعاستى فى ذلك الوقت .

لقد تحطمت سعادتى ... وفقدت كل أمل فى الوصول إليك..

وكنت أجلس فى المساء خلف الكوخ ، أحملق فى الفضاء الواسع ، وفى الأرض الممتدة أمامى ، فأشعر بها تضيق من حولى حتى تكاد تخنق أنفاسى .

ولم أخبر تنكود منهوجى أو زوجته بما حدث ، وآثرت الصمت وعندما لاحظ الرجل التغير الذى طرأ على ، ادعيت أن جدتى مريضة ، وأنى قلقة لأجلها .

ولكن بمرور الوقت أحسست أن زوجته لم تعد كما كانت من ناحيتى .

أصبحت لا تغادر البيت كثيرا ، وأخذت تراقبنى باستمرار ، وتحاول ابعادى عن مريم ، وتصرخ فى وجهى بسبب وبغير سبب وفى يوم ... طلبت منى أن أبحث عن عمل آخر . وأن أترك البيت فى أقرب فرصة .

وثار تنكود منهوجى عندما رآنى أهم بالرحيل ، وصاح فى غضب شديد :

ـ تيا .... عودى إلى الداخل ... لن ترحلى عن البيت ما دمت حيا .

وصاحت زوجته وقد تطاير الشرر من عينيها :

ـ بل سترحل ... لست غبية مثل أختى ، إننى أفهمها جيدا ... إما أن ترحل هى ... أو أرحل أنا .

ـ لن ترحل تيا عن البيت ... هل تفهمين . لقد احتملتك كثيرا ولن أصبر عليك أكثر من هذا .

ـ ماذا حدث لك ... هل سحرتك أنت الآخر ، ألـم أقـل لك أنهـا تمـارس السحر ... أنظر إلى نفسك ، لقد أصبحت كالخاتم فى أصبعها .

وصفعها الرجل على وجهها ، وأخذ يصيح ويهدد ويتوعد ، والمرأة تبكى وتقسم أنها ستغادر البيت ولن تعود إليه مرة أخرى .

وأسرعت اليه ، وقبلت يده ... ورجوته أن يتركنى أرحل :

ـ أرجوك يا سيدى .. من أجلى ومن أجل مريم ومن أجل أولادك .. دعنـى أرحل . صدقنى لست غاضبة منها ، إنها أم مريم يا سيدى ، .. إنها أم مريم ، لا تحرم الصغيرة من أمها ... أرجوك يا سيدى .

وغادرت البيت مسرعة ..

ولحق بى الرجل فى الطريق بعد قليل .

ـ تيا ... لماذا رحلت ؟ ما كان يجب أن تتركى البيت أبدا . إننى لم اصدق أبدا

ما قالته عنك ، أعرف أن ألنتو قد ظلمك ، وظلم أباك ، وظلم أناسا كثيرين من قبل ، فاستحق انتقام الله منه .

ـ لا عليك يا سيدى ، وشكرا لك ، لقد كنت دائما طيبا معى .

وأدخل الرجل يده فى جيبه وأخرج مظروفا صغيرا :

ـ خذى يا تيا ... انه مبلغ من المال قد يساعدك فى تدبير أمورك بعض الوقت ، أو يساعدك فى السفر الى ابنتك . ولى رجاء عندك ، ألاّ تتأخرى يوما فى طلب أية مساعدة منى قد تكونين فى حاجة إليها .

وحيانى مودعا ... وانصرف .

وفتحت المظروف ... ولم أصدق نفسى ... كان مبلغا كبيرا من المال .

وأحسست بسعادة غامرة ، وانطلقت مسرعة فى طريقى أكاد أطير من شدة الفرح ، ودخلت الكوخ وأنا أصيح :

ـ جدتى ... جدتى ... سوف أرى إسلام أخيرا ... لقد أعطانى تنكود منهوجى مبلغا كبيرا من المال ، ولن تمض شهور قليلة حتى أتمكن من أن أجمع المبلغ الكافى للسفر ، سنذهب إليها سويا يا جدتى ... سنذهب إليها سويا .

وقالت جدتى وهى تبتسم :

ـ لن تنتظرى شهورا أخرى ... يمكنك السفر إليها غدا .

وناولتنى صرة صغيرة وقالت :

ـ أنظرى ... لقد أرسل إليك ألنتو المال ... لقد أفاق إلى نفسه وهو على فراش الموت فأعاد اليك ما لك يا تيا .

وصرخت ... واحتضنت جدتى أقبلها وأبكى من فرط سعادتى .

لم يمض أسبوع واحد إلا وكان تنكود منهوجى قد أنهى جميع الاجراءات ، وسلمنى الأوراق اللازمة والتذاكر ، وأخبرنى عن موعد إقلاع السفينة .

عشرة أيام فقط ... وتنتهى أحزانك يا تيا .

عشرة أيام ، وتضعين قدمك بعدها على أول الطريق الذى يحملك إليها ..

سأحتضنها ، وأقبلها ، وأروى ظمأ السنين الطويلة إليها ..

آه يا إسلام .. بقيت خمسة أيام يا حبيبتى ... بقيت ثلاثة أيام ... يوم واحد ... غدا ... غدا يا إسلام سوف أرحل فى طريقى إليك .

ولم يغمض لى جفن ليلتها ..

جلست طوال الوقت خارج الكوخ .. ونسيم الليل البارد يداعب وجهى ، فأشعر بك الى جانبى وبين أحضانى ، فتغمرنى سعادة لاحدود لها .

وما أن أشرق الصباح ، حتى أسرعت الى الداخل ، وأيقظت جدتى .

وفتحت جدتى عينيها بصعوبة شديدة ، وقالت بصوت واهن :

ـ تيا ... تعالى .. إقتربى هنا وأصغى جيدا لما سأقوله لك .

وأدركت أن هناك شيئا ما فى الأمر .. وأحسست بخوف وانقباض شديد فى صدرى .

كان شبح الموت يرتسم على وجهها .

ـ لا ياجدتى .. ليس الآن .. ليس اليوم .. أرجوك ألا تفعليه .. لا تفعليها اليوم يا جدتى ، لقد تمنيت الموت طويلا .. وصبرت على الحياة طويلا .. أفلا يمكنك الصبر يوما آخر ؟.

يوما واحدا فقط .. لماذا ياربى .. لماذا ؟..

وسمعتها تقول بصوت ضعيف :

ـ عدينى يا تيا ..

ـ بماذا أعدك يا جدتى .. ؟

ـ عدينى أن تسافرى اليوم إليها مهما حدث .. هل تفهمين .. مهما حدث ؟.

ولم أرد .. وأخذت أنظر إليها فى ذهول .

ـ تيا .. عدينى يا ابنتى قبل أن أموت .. عدينى وإلا بقيت روحى معلقة غاضبة عليك إلى يوم الدين .

كانت نبرة صوتها جادة لدرجة أفزعتنى .

ـ أعدك يا جدتى .. أعدك بأن أرحل إليها اليوم ، سنرحل إليها سويا يا جدتى ، إنك بخير .. أعرف أنك بخير .

فقاطعتنى وأنفاسها تتلاحق :

ـ لم يعد هناك وقت ياتيا .. لم يبق إلا دقائق معدوده ، وعندما ينتهى كل شيء أتركينى فى فراشي وارحلى .. هل تسمعين .. لا تتأخرى عن الموعد أبـدا .. مهما حدث ، إنها وصيتى إليك ... فلا تخالفى أمرى .

ونظرت الى نظرة طويلة ، وقالت قبل أن تغمض عينيها .. :

ـ وداعا يابنتى ..

وماتت جدتى .....

جلست إلى جوارها أحملق فيها ذاهلة ..

ما العمل يا ربى .. كيف أتركها هكذا وأرحل ..

لن أستطيع أبدا .. لن أستطيع .. سوف أخبر الناس .. سوف أذهب إلى تنكو دمنهوجى .. لن أرحل قبل إتمام الجنازة ومراسم الدفن .

وانطلقت إلى الطريق .. وأخذت أجرى بأقصى سرعة .

ولكن كيف يا تيا .. لم يعد هناك وقت .. لم تبق إلا ساعة واحدة على موعد الرحيل ، ومراسم الدفن ستستغرق ساعات طويلة .. وقد وعدتها بالرحيل .. وعدتها بالرحيل .

وسمعت صوتها يدوى فى أذنى :

« ستبقى روحى معلقة ، غاضبة عليك حتى يوم الدين » .

وتوقفت فى منتصف الطريق ، لا أدرى ماذا أفعل ، والحيرة تمزقنى ..

وعاد صوتها يدوى فى أذنى :

« إرحلى ياتيا .. إرحلى ياتيا .. انها وصيتى إليك ، فلا تخالفى أمرى .. إرحلى ياتيا .. » .

واستدرت مرة أخرى .. وأسرعت فى طريقى إلى الكوخ .

وجلست إلى جوارها وأنفاسى تتلاحق .. والدقائق تتلاحق ، والوقت يمر سريعا .

وفجأة يا ابنتى .. رأيتك ماثلة أمامى ، فاشتعل قلبى وأحرقت نار الشوق كل

حيرة وكل تردد فى داخلى ، فقفزت من مكانى ..

لم يعد هناك وقت يا إسلام .. لم يعد هناك وقت يا حبيبتى ..

ها أنا آتية إليك ...

وحملت قطعة كبيرة من الخشب ، وبدأت أحفر الأرض فى وسط الكوخ ..

ولم تمض دقائق حتى كنت قد حفرت قبرا صغيرا لجدتى .

ثم أحضرت إناء كبيرا ملأته بالماء ، وسكبت به زجاجة من العطر كنت أحتفظ بها كذكرى من أمى .

ونظرت إلى جدتى ..

كانت ترقد فى سكينة وهدوء ، ووجهها يشع نورا وسلاما . وتقدمت إليها ، وركعت إلى جوارها ، وحملتها بين يدى ، وأخذتها بين أحضانى ، وضممتها الى صدرى . وبقيت هكذا للحظات أحسست خلالها أن الزمن قد توقف .

وبعد قليل أفقت الى نفسى ، فقبلتها ، ووضعتها مرة أخرى فى فراشها .

ولا أدرى يا ابنتى ، بل ولا أذكر كيف خلعت عنها ملابسها ، وكيف قمت بغسل رأسها الحبيب وجسدها الطاهر .

وأخرجت الكفن من مكانه وكانت تحتفظ به منذ سنوات طويلة .. ولففتها به بعناية ، وهممت بأن أحملها لأضعها فى القبر ، حين تذكرت فجأة أنى لم أقم بالصلاة عليها ، وانطلقت إلى الخارج فى لهفة مجنونة مضطربة وجلست على باب الكوخ ، وأخذت فى الوضوء ، وما أن انتهيت حتى كانت الرمال قد ملأت فمى وغطت رأسى وجسدى .

وأدركت أنى قد بدأت أفقد اتزانى ..

يا إلهى ساعدنى .. ساعدنى .. ساعدنى .

وحاولت أن أتمالك نفسى ، فجلبت قليلا من الماء وتوضأت سريعا .

وأسرعت إلى الداخل مرة ثانية .

وبقلب خاشع جريح وقفت لأصلّ عليها .. نعم يا إسلام وقفت أصلى على

جدتى وأودع قطعة من عمرى ، وحبيبة ما أحبنى أحد بقدر ما أحبتنى .

وما أن انتهيت حتى حملتها برفق لأضعها فى مثواها الأخير ولأدفن فى الأرض قلبا كان ملاذى الوحيد فى دنياى الأليمة .

وأخذت أهيل التراب فوقها .. وكل شىء فى كيانى يهتز ويرتعش .. قلبى .. شفتاى .. يداى .. قدماى .. وسويت الأرض من فوقها .. وحملت صرة ملابسى ، واندفعت إلى الخارج فى طريقى إلى الميناء .

وقطعت الطريق عدوا ، وشىء فى داخلى يصرخ :

لم يعد هناك وقت يا إسلام .. لم يعد هناك وقت يا حبيبتى .. ها أنا قادمة اليك .

وأخذت أجرى وأجرى وأنا أدعو الله أن يساعدنى وأن أصل فى الموعد .

ووصلت فى اللحظة الأخيرة ..

وما أن وضعت قدمى فوق سطح السفينة ، حتى رفعت المرساة وأعلن عن الإقلاع .

وتكومت على الأرض ، ألهث من شدة التعب ..

ومضت فترة من الوقت قبل أن أتمالك نفسى ومشاعرى وأدرك ماحدث وأتنبه لما فعلت ..

وصرخت من أعماقى ...

آه يا جدتى الحبيبه .. ماذا فعلت بك .. ماذا فعلت بك .. ؟! سامحينى يا جدتى .. سامحينى ..

وانهمرت دموعى غزيرة رغما عنى ..

وسارت السفينة تشق البحر فى طريقها إليك ..

النهاية

إنها النهاية يا عبد المجيد..
إنها النهاية.
لقد كتب عليك أن
تعيش باقي أيام
عمرك في هذا
القبر الموحش،
وحدة قاتلة..
وموتاً بطيئاً.
إنه انتقام
الله...



دق الجرس فى منزل السيد عبد المجيد وقت الظهيره .

كانت إسلام منهمكة فى إعداد الطعام ، وأسرعت لتفتح الباب . وفوجئت بشاب وسيم طويل القامه يقف أمامها وجها لوجه ..

وتوارت سريعا ... وهمت بإغلاق الباب ، عندما دفعه برفق ودلف إلى داخل المنزل .

وقال وهو يبتسم لها :

ـ كيف حالك يا إسلام .. ألم تعرفينى بعد .. إننى هشام .. ابن عمك ..

ووقفت الفتاة تحملق فى وجهه مأخوذة ، فقال وهو يمد يده مصافحا :

ـ لقد كبرت وأصبحت شابة جميلة .. لم أرك منذ عدة سنوات .

وصافحته سريعا ، ثم قالت فى تلعثم شديد :

ـ شكرا .. أبى هناك .. أقصد فى غرفته .. إننى آسفه ، مظهرى غير لائق .. أقصد أنه لا يوجد خدم بالبيت .. لقد غادرنا محسون ... و ...

ـ أوه .. ربة بيت أيضا .. إننى رجل محظوظ اذاً .

وأحست بقلبها يخفق بعنف ، ووقفت حائرة لاتدرى ماتقول .. ثم قالت وهى تشير الى غرفة أبيها :

ـ تفضل من هنا .. بعد إذنك .. سيحترق الطعام ..

وانفلتت من أمامه مسرعة .

وفى اليوم التالى ، ذهبت الفتاة كعادتها إلى المدرسة فى الصباح الباكر .

جلست شاردة لا تتكلم ..

وسألتها أمها :

ـ ما بالك يا إسلام .. هل هناك شىء فى الأمر .. أخبرينى يا ابنتى .. ؟

ـ لا شيء يا أمي . هل تعرفين لقد حضر أمس لزيارتنا هشام ابن عمى ، وتناول معنا طعام الغداء . لقد أخبرتك من قبل أنه تقدم لخطبتى منذ عدة سنوات . إننى أكرهه ياأمى ، أكرهه من كل قلبى .

ـ ولماذا يا ابنتى .. هل صدر منه مايضايق .. ؟

فقالت الفتاة بعصبية شديدة :

ـ لا أقصد هذا ياأمى .. ولكنه شاب ثقيل الظل ، واثق من نفسه إلى درجة كبيرة لأنه وسيم طويل القامة ، مع أنى لا أراه وسيا على الاطلاق ياأمى .. لا أراه وسيا على الاطلاق .

لقد قال لى بالأمس لقد أصبحت شابة جميلة يا إسلام ، ولا أحب أن أسمع مثل هذا الكلام السخيف يا أمي .. إننى أكرهه يا أمى .. أكرهه .

وشردت الفتاة مرة أخرى .

ونظرت اليها أمها طويلا ، وابتسمت وهى تقول :

ـ وماذا بعد يا إسلام .. ؟

وأفاقت الفتاة من شرودها وقالت :

ـ لا شيء يا أمى .. ولكنه هذا الهشام ، لقد قال لى بالأمس إننى طاهية ماهرة ، ماذا يظن نفسه بالله عليك ؟

هل تصدقين .. سيحضر اليوم مرة أخرى ليتناول معنا طعام الغداء . إننى أكرهه يا أمى .. ولا أحب أن أراه مرة أخرى .

مالك تنظرين إلى هكذا .. ألا تفهمين ما أعنى يا أمى .. ؟

فابتسمت المرأة وقالت وهى تربت على كتفيها :

ـ بل أفهمك يا ابنتى .. أفهمك جيدا .

وعند الظهيره دق الجرس ..

وأسرعت الفتاة لتفتح الباب ..

ـ أهذا أنت ؟. لم أكن أعلم ..

ـ حقا ... ؟!

بالطبع .. وكيف لى أن أعرف ؟
فقال الفتى فى هدوء شديد :
ـ إنك اليوم غاية فى الأناقة يا إسلام .
وارتبكت الفتاة .. وقالت بنبرة جادة وهى تشيح بوجهها :
ـ لا يجوز لأى فتاة مهذبة أن تسمح لأحد بمثل هذا الحديث ..
ولاأحب أن أسمع منك مثل هذا القول مرة أخرى .
فقال الشاب وهو يكتم الضحك :
ـ أوه .. هكذا إذاً .. شكرا لأنك أخبرتنى . لن أستطيع اذا أن أقول لك أنك فاتنة رائعة الجمال حتى لا تغضبى منى .
وارتبكت الفتاة وتلعثمت ، ثم انطلقت مسرعة إلى غرفتها .

وجلست على سريرها .. وحاولت أن تتمالك نفسها فلم تستطع . وأخيرا صاحت فى انفعال شديد :
ـ آه يا أمى .. كم أكره هذا الهشام .. كم أكرهه .
ومرت عدة أيام تغيرت فيها أحوال الفتاة كثيرا ..
أصبحت ساهمة .. شاردة ، لا تتحدث إلا قليلا .

وفى يوم حضرت مبكرة ، وقالت وعيناها تشعان سعادة :
ـ أمى .. هل تعلمين .. لقد تقدم هشام لخطبتى من أبى مرة أخرى بالأمس .
ـ وهل وافق أبوك .. ؟
ـ لم يستطع الرفض .
فقالت المرأة فى خبث :
ـ وأنت .. هل وافقت ، وكيف تتزوجين منه وأنت تكرهينه إلى هذه الدرجه .. ؟
وفوجئت الفتاة وقالت متلعثمة :
ـ بالطبع أكرهه ياأمى .. ولكن لا يجوز أن أخالف أمر أبى مهما حدث .
فضحكت المرأة وقالت :

ـ يا بنيتى الحبيبة .. لماذا تحاولين إخفاء الحقيقة حتى عن نفسك .. ؟ لماذا تنكرين أنك تحبينه كل الحب .. ؟

واحمر وجه الفتاة ، وصاحت فى عصبية شديدة :

ـ أنا يا أمى .. أنا أحبه .. أبدا .؟ أبدا .

ـ بل تحبينه .. أعرف هذا جيدا . وأعرف أيضا أنك سعيدة لزواجك منه . وأنا أيضا .. سعيدة لأجلك يا ابنتى .

واحتضنتها المرأة بين يديها .. وقبلتها .

وجلست الفتاة هادئة صامتة لا تتكلم .

ـ ما بالك يا إسلام .. ؟

فتنهدت وهى تقول :

ـ لقد تعجبت كثيرا عندما أحببته يا أمى ، تعجبت كثيرا لنفسى .

فقبل أن أراك .. لم أكن أصدق أن بإمكانى أن أحب أحدا غير أبى فى يوم من الأيام .. كنت ظمئى للحنان .. ظمئى للحب .. كنت فى أشد الحاجة إليه ، أبحث عنه فلا أجده .

لهذا لم يكن فى إمكانى أن أعطى شيئا أفتقده .

وبعد أن رأيتك يا أمى .. بعد أضأت حياتى ، ورويت ظمئى ، وملأت روحى وكيانى محبة وحنانا ، أصبح فى إمكانى أن أعطى ، وأن أحب ، وأن أرفض الحب ..

لهذا .. إن كنت قد أحببت هشاما ، وقبلت الزواج منه ..

فالفضل لك يا أمى ، نعم .. الفضل لك أولا وأخيرا .

واحتضنتها المرأة فى سعادة ..

ـ أخيرا سوف أتمكن من أن أراك ليل نهار يا أمى .. سوف نعيش معا إلى الأبد فى بيت واحد ، ولن أفترق عنك لحظة واحده .

وصمتت قليلا ، ثم قالت وهى تبتسم فى خجل :

ـ لو كانت جدتك على قيد الحياة يا أمى .. لقالت أن هشاما هو بالفعل أجمل أمير فى العالم ..

ـ أبى .. ما بالك .. ؟

فقال الرجل فى صوت حزين .. :

ـ بقيت ثلاثة أيام على زفافك يا إسلام .. سأفتقدك كثيرا يا ابنتى .

واقتربت منه الفتاة وجلست إلى جواره .

ـ لماذا لاتترك هذا البيت وتأتى لتعيش معنا يا أبى ؟

إن هشاما ابن أخيك ، فهو فى منزلة ابنك .

فتنهد الرجل وأطرق برأسه الى الأرض وهو يقول :

ـ لقد كان لى ابن فى مثل عمره ، مات فى حادث سيارة هو وأمه منذ سنوات بعيده . كان قد سافر الى الرياض لينهى إجراءات التحاقه بالجامعة ، وعندما علم بموعد وصولى من جاوه ، أسرع عائدا ليكون فى استقبالى فى المطار . وفى الطريق فأجأته سيارة شحن كبيره ، لم يستطع أن يتفاداها و ..

وبسرعة غيرت إسلام مجرى الحديث :

ـ ولكن الله أرسل إليك هشام بدلا منه يا أبى ..

ـ أعرف هذا يا ابنتى ، ولكنى لا أستطيع أن أترك بيتى أبدا ، سوف أكتفى برؤيتك بين حين وآخر كلما سنحت لك الفرصه . وأنت يا إسلام .. ألن تفتقدى أباك .. ألن تشعرى بالوحدة بعيدا عنى ؟

وترددت الفتاة ..

هيا يا إسلام .. هيا أخبريه .. إن الفرصة سانحة ليعرف الحقيقة ولتعرفى منه الحقيقه ، فربما استطاع أن يجد لنفسه عذرا واحدا فيما فعل . أخبريه الآن ، فسوف يعرف إن عاجلا أو آجلا ..

ـ بالطبع يا أبى .. سوف أشعر بالوحدة بعيدة عنك ، ولكن وجود أمى سوف يؤنس وحشتى الى حد ما .

ـ نعم يا ابنتى .. إن أم هشام امرأة فاضلة ، وهى فى منزلة أمك تماما .

ـ لا أقصد أم هشام .. أقصد أمى أنا .. تيا يا أبى .. تيا ابنة سراج الدين .. ألا تعرفها .. ؟

واحتقن وجه الرجل ونظر اليها كالمصعوق ..

ـ ما بالك تنظر إلىّ هكذا يا أبى .. أتراك قد نسيتها ، إنها هنا منذ أشهر طويلة ، وكنت أراها كل يوم فى الصباح ، وأذهب للقائها فى الحرم . لقد تحدثت إليها طويلا .. وعرفت منها كل شىء عنها ، وعرفت كل شىء عنك .

وصاح الرجل وهو يلهث من شدة الغضب :

ـ تخدعين أباك يا إسلام ..

وصفع الفتاة على وجهها صفعة قوية ، أطاحت بها على الأرض .

فقالت وهى تنظر إليه فى تحد وحقد شديد :

ـ أهكذا صفعت منصورا يا أبى يوم أن حاول اقناعك بأن تتركنى بين أحضان أمى .

وصاح الرجل مرة أخرى :

ـ تخدعين أباك يا إسلام .. تخدعين أباك ..

ـ لم أخدعك يا أبى ، ولكنك أنت الذى خدعتنى طوال خمسة عشر عاما .. لماذا يا أبى .. لماذا تركتنى أعيش يتيمة وأنت تعلم أن لى أما لازالت على قيد الحياة . أخبرنى يا أبى .. أى جرم ارتكبته أمى استحقت عليه العذاب خمسة عشر عاما ، الأنها امرأة فقيرة .. ؟ الأنها ابنة سراج الدين .. ؟

صدقنى .. إن سراج الدين كان يملك قلبا رقيقا حانيا ، قل أن يملكه كثيرون غيره من الناس ، أحب زوجته وأخلص لها حتى الموت ، ولم يسىء إلى أحد طوال عمره بقدر ما أساء الى نفسه . لقد كان سراج الدين ضحية غدر ألنتو ..

وكانت أمى ضحية غدرك ياأبى ..

ـ أغربى عن وجهى .. لا أريد أن أراك بعد الآن .. أغربى عن وجهى .

ـ أين كان ضميرك يوم أن فعلتها يا أبى .. أخبرنى بالله عليك أين كان

ضميرك .. ؟

وصاح الرجل فى جنون :

ـ قلت لك اغربى عن وجهى ..

وقامت الفتاة من فورها ، وأسرعت الى غرفتها ، وارتمت فوق فراشها ، وأغمضت عينيها للحظات ، تحاول أن تستجمع نفسها .

ومضت فترة من الوقت ..

ماذا فعلت يا إسلام .. هل جننت .. كيف تجرحين أباك إلى هذه الدرجه .. أفلا تحبينه .. كيف تعاملينه بهذه القسوة إذاً .. ؟

أما كان بإمكانك أن تخبريه بطريقة أفضل .. إنه أبوك يا إسلام .. مريض تقدمت به السن ، مهما فعل ومهما أخطأ فهو أبوك ولايستحق منك إلا كل حب ورعاية .

وأحست بالخوف يعتصر قلبها من أجله ، فأسرعت إلى غرفته مرة أخرى .

كان يجلس فى فراشه وقد وضع رأسه بين كفيه .. واقتربت منه الفتاة :

ـ أبى .. أعذرنى .. لم أقصد إيلامك .

وظل الرجل جامدا .. صامتا لايرد .

ـ أبى .. اننى جد آسفه .. إننى أحبك يا أبى ، ولم أقصد أبدا أن ..

فقاطعها الرجل :

ـ إسلام .. لا أريد أن أسمع منك أى كلمة أخرى .

ـ أرجوك يا أبى .. إننى لم ..

وصاح الرجل فى حدة وهو يدفعها بعيدا عنه :

ـ قلت لك اغربى عن وجهى ..

ولم تتمالك الفتاة نفسها .. فأجهشت بالبكاء .

وتزوجت إسلام .. وتركت البيت .
ومرت الشهور .. ومرت السنون .
وكانت تذهب لرؤية أبيها كلما سنحت لها الفرصة ..

وفى يوم سألتها أمها :
ـ كيف حال أبيك يا إسلام .. ؟
ـ لا أدرى ماذا أقول لك يا أمى .. انه لازال على حالته التى تعرفينها . لقد خرج الخادم الأخير اليوم هو الآخر الى غير رجعة . ليس هناك أحد يمكنه أن يحتمل مثل هذه المعاملة السيئه .
لقد تغير أبى كثيرا .. كثيرا .. هل تصدقين .. إنه يكره هشاما ولايطيق رؤيته ، وأتصور أحيانا أنه يغار منه . لقد أصبح أبى إنسانا لا يطاق .
وصاحت فيها المرأة :
ـ إسلام .. لايليق أبدا أن تتكلمى عن أبيك بهذه الطريقه .
ـ أعذرينى يا أمى .. لم أقصد ، ولكنه يتصرف معى كطفل صغير ، يريد منى أن أبقى إلى جواره دائما ، وهو يعلم أنه ليس فى إمكانى أن أترك بيتى وأطفالى طوال الوقت . لقد تعبت كثيرا .. أخبرينى بالله عليك ماذا أفعل حتى أرضيه .
وصمتت المرأة ولم تجب .
ـ هل تعرفين بماذا أجاب عندما أخبرته أن هشاما قد حصل على بعثة للخارج ليكمل دراسته ، وأننا سنسافر معه جميعا فى آخر الشهر القادم ، هل تعرفين بماذا أجاب يا أمى .. ؟
لقد صاح فى وجهى :
ـ إن رحيلك أو بقاءك سيان عندى ، يمكنك السفر من الغد إن شئت . إن كنت تظنين أننى لا أستطيع الاستغناء عنك .. فأنت مخطئه . لاتنسى أننى السيد عبد المجيد ..
وسوف أظل دائما السيد عبد المجيد .. أخبرى أمك بذلك ،

وأخبريها أننى لست فى حاجة إليها ولا الى ابنتها .. هل تسمعين ؟

وصمتت قليلا ونظرت الى أمها .

كانت تجلس حزينة شارده ، وقد أطرقت برأسها الى الأرض .

ـ أمى .. فيم تفكرين .. ؟

ـ أفكر فيه يا ابنتى .. إنك لم تفهمى سر تصرفه هذا .. ولن تفهمى أبدا . لقد فكرت فى أمره طويلا .. طويلا . إننى حزينة لأجله ، لقد تقدمت به السن وأصبح مريضا فى حاجة للرعاية ، فمن سيرعاه عندما نوحل يا ابنتى ، من سيرعـاه فى غيابك .. ؟

لايجب علينا أن نتركه وحيدا يا ابنتى ، لايجب علينا أن نتركه وحيدا أبدا .. أبدا .

ـ وماذا تريدين منى أن أفعل .. ؟ أترك بيتى وأذهب لأعيش معه .

ـ لم أقصد هذا أبدا ، إن مكانك دائما بجوار زوجك .

ـ وماذا تقصدين إذاً .. هل لديك حل آخر .. ؟

ـ لا أدرى ماذا أقول لك يا ابنتى .. لقد فكرت كثيرا فى الأمر ، إن أباك فى أشد الحاجه للرعاية .. فى أشد الحاجه إلى وجودى بجانبه ، لقد فكرت كثيرا يا ابنتى وقررت أن أذهب لأعيش معه .

وصاحت إسلام فى دهشة شديده :

ـ ماذا .. !!

كان السيد عبد المجيد يجلس فى غرفته فى مكانه المعتاد .

بدا حزينا .. شاحبا .. متخاذلا ، وقد ألقى برأسه للخلف واستغرق فى تفكير عميق .

إنها النهاية يا عبد المجيد .. إنها النهاية : لقد كتب عليك أن تعيش باقى أيام عمرك فى هذا القبر الموحش ، وحدة قاتلة .. وموتاً بطيئاً .

إنه انتقام الله ..

لقد تجبرت كثيرا ، وظلمت كثيرا ، ونسيت أن الله يراك .

واعتدل فى جلسته وصاح وهو يلوح بقبضته فى انفعال شديد :

ـ أين أنت يامنصور .. أين أنت لترى الجبل الشامخ يتهاوى إلى أحجار صغيرة . لقد كان الحق معك ، وكان انتقام الله أسرع مما تصورت ، حرمنى من ولدى إلى الأبد يوم حرمتها من رؤية ابنتها ، إنه انتقام الله يا منصور .. انتقام الله .

ليتنى أفقت إلى نفسى يومها .. ليتنى تراجعت .. ليتنى تراجعت .

ولكنى تماديت فى ظلمى ، وتماديت فى قسوتى ، ولم يستيقظ ضميرى .. لم يستيقظ وها هى النتيجة ..

أين أنت لترانى الآن .. ذليلا .. كسيحا .. محطم النفس .

وأخفى وجهه بكفيه وقال فى صوت جريح :

انه انتقام الله .. انتقام الله . وأخذ يهز رأسه ويئن بصوت خافت ..

ومضت فترة طويله .. بدا له خلالها أن العالم قد توقف من حوله .

وأحس بحركة غريبه .. فرفع رأسه .. وشهق من شدة المفاجأة :

ـ تيا .. !!

كانت تقف عند باب الغرفة طوال الوقت ، صامته ، تراقبه دون أن يشعر .

وبعد قليل اقتربت منه ببطء .. وركعت إلى جواره ، وأخذت تنظر إليه حائرة لاتدرى ماتقول .

ـ كيف حالك أبا إسلام .. ؟

وظل الرجل جامدا ينظر إليها لايصدق نفسه .

ـ تيا .. تيا ..

وقالت المرأة بصوت مضطرب :

ـ سيدى .. لقد جئت ..

فقاطعها قائلا :

ـ جئت .. جئت لتشمتى ياتيا .. أعرف هذا ولكن ..

ـ سيدى .. أرجوك .. ان لى عندك طلبا أرجو ألا ترفضه .

تعلم أن إسلام سترحل مع زوجها إلى الخارج ، فهل تسمح لى بأن آتى لأعيش معك فى هذا البيت .. ليس لى مكان آخر كما تعلم .

وتهالك الرجل مأخوذا ، واغرورقت عيناه بالدموع ، وقال بصوت مختنق :

ـ تيا .. إننى لا أستحق منك كل هذا .. لقد ظلمتك كثيرا ، وعذبتك كثيرا ..

فقاطعته قائلة :

ـ أبا إسلام .. أرجوك أن تستريح الآن .. تبدو مرهقا ، وفى أشد الحاجة إلى النوم والراحه وسوف أصنع لك شيئا من طعامك المفضل .. إننى لازلت أذكره إلى الآن .

ـ تيا .. أرجوك .. لا أستحق منك كل هذا .. لقد تعذبت كثيرا .. تعذبت كثيرا ياتيا .. أليس كذلك ..

ـ سيدى .. أرجوك أن تستريح الآن .. غدا أخبرك بكل شيء ..

وأمسك الرجل بكتفيها وهزها فى رفق :

ـ تيا .. أخبرينى .. هل سامحت .. هل غفرت .. ؟

فقالت المرأة وهى تنظر إلى الأرض :

ـ غدا ياسيدى .. غدا .. إسترح الآن .. أرجوك .

وعاد يسأل فى لهفة شديدة ، وفى عينيه نظرة ذليلة متضرعة :

ـ تيا .. أرجوك .. قولى أنك قد نسيت .. قولى أنك قد سامحت .. قولى أنك قد غفرت ليطمئن قلبى .

ونظرت إليه المرأة نظرة طويلة عاتبة وقالت بصوت حزين :

ـ غدا ياسيدى .. غدا أنسى .. غدا سأغفر لك .

واحتضن الرجل يديها برفق .. وقبلهما ..

وانسابت دموعه فى صمت ..

وهكذا السعادة الحقيقية يا ابنتى .. مثل قطعة الزئبق .. إن لها بريقا يخطف الأبصار ، ويسلب العقول ، كلنا نسعى إليها ونحاول الامساك بها دون فائدة . علينا فقط أن نراقبها من بعد ، ونحلم بالحصول عليها ، وعلينا أيضا أن نكتفى بقدر قليل منها يعطى البريق لنفوسنا الصدئة بين حين وآخر .

فهرس

تصويب الأخطـــاء

نأسف لوقوع أخطاء مطبعية غير مقصودة فى القصة نشير إليها فيما يلى :

الصفحة	السطر	الخطــأ	الصـــواب
٣٧	٦	أنه	إنه
٤٢	١٧	يأخذك	أخذك
٤٣	١٤	منهكه	منهمكة
٥٧	٢١	منحدره	منحدر
٦٠	١١	وعروسه	وعرائس
٩٧	٢٤	فقال	فقالت
٩٨	١٠	وعلى	على
١١٠	٤	احببتك	احتضنتك
١١٣	١٨	شر يره	شر يدة
١٢٣	١٩	كان	كانت
١٣٤	٢٣	وكنت	كنت
١٤٣	١٥	لديكم	لديك
١٥١	١٤	وتذكرت	وتذكرتك
١٥٣	١٦	كيفا	كيفما

غـــدا أنسى

الصفحة	السطر	الجملة بعد الأضافه
٣٣	٦	ربما يا إسلام بعد كلمة (الأمل فى صدرى)
٤٤	١٥	وكلما نظرت إليك ورأيت هذه النظرة فى عينيك بعد كلمة (وقدميك ويديك)
٤٧	٢٣	شعرت (تصويب) وشعرت
٦٨	٧	منه ، وأصبح لا يستطيع الأستغناء عنه أطلاقا وبالتالى بعد كلمة (يشربها)
٩٧	١	فقدت صوابها وفقدت
٩٩	١٢	الغرفة وجلس إلى بعد كلمة (دخل أبى)
١٢٤	٢٢	وقال بعد كلمة (بيده)
١٣٤	٤	جميع الناس بعد كلمة (إن الناس)
١٣٤	٢٠	إنى بعد كلمة (أبى)
١٧٥	١٠	لتشمتى يا تيا (بعد جئت الأولى)

المؤلفة

- طبيبة سعودية من مواليد مكة المكرمة .. من الأسرة العريقة المعروفة بآل شطا ...
- تعمل حاليا في مجال تخصصها كطبيبة أمراض باطنية .. بعد أن حصلت على دبلوم التخصص عام ١٩٧٥ من جامعة القاهرة .
- تعتبر الأدب هوايتها الأولى على الرغم من تخصصها العلمي .. وقد نشرت فعلاً مجموعة من قصصها القصيرة في بعض الصحف المحلية .
- "غداً أنسى" الرواية الأولى للمؤلفة ، تلقي فيها الضوء على جانب من صور حياتنا الاجتماعية . وتعتبر الكاتبة على حد تعبير الناقد الكبير الأستاذ عزيز ضياء "مفاجأة لي .. وستكون مفاجأة للقارئ حين يعيش أحداث روايتها ، وحين يتذوق أسلوبها السهل المتدفق مع سلامته من الخطأ واستقامة عبارته".

طبعت بمطابع دار البلاد – جدة